التحصين الطبيعي لعواصم المغرب الأوسط

The Natural Immunizing of Central Maghreb Capitals

لعناني صلاح الدين [1]
طالب دكتوراه جامعة قسنطينة 2 -عبد الحميد مهري-
مخبر: تاريخ، تراث ومجتمع
salaheddine.laanani@univ-constantine2.dz
أ/د. شعباني بدر الدين
جامعة قسنطينة 2 -عبد الحميد مهري-
badrchab@yahoo.fr

تاريخ الوصول 2021/06/19 القبول 2021/11/13 النشر على الخط 2022/05/10
Received 19/06/2021 Accepted 13/11/2021 Published online 10/05/2022

ملخص:

عُدّ التحصين الطبيعي منذ القِدم أحد أبرز شروط حُسن اختيار مواقع المدن، فهو الركيزة المكملة للاستحكامات الدفاعية التي تذود عن الحواضر أيام الحصارات الطويلة والوقائع الحربية، بل إنه الأصل في صياغة منظومة التحصينات وحسن تموضُعها وفق منظور حربي تكتيكي يُبرز مراكز القوة ويُخفي مواطن الضعف، ولهذا لم يغْفَله علماء المسلمين لاقترانه بوجوب حفظ النفس كإحدى الأولويات القُصوى الواجب على الرّاعي مراعاتها كمسؤول عن الرعية، فما كان من بُناة عواصم المغرب الأوسط إلاّ أن سعوا لضمان الميزة الأمنية الدفاعية الطبيعية عند تخطيط عواصمهم التي مثلت مراكز القيادة؛ بدءًا بالرستميين في تيهرت وسدراتة، انتقالا إلى ما شيّده ملوك صنهاجة بأشير والقلعة الحمادية وبجاية، انتهاءً بتلمسان عاصمة بني زيان الزناتيين.

الكلمات المفتاحية: التحصين الطبيعي، عواصم المغرب الأوسط، الرستميون، الصنهاجيون، الزناتيون.

Abstract:

The natural immunizing is one of the most important conditions for a good selection of city sites since old time. It is a supplementary basic for offensive fortification that preserve cities in days of sieges and wars. And It's the origin of all fortification plan with its good position from the tactical side which reveals points of power and hides points of weaknesses. the Muslim jurists did not overlook it, because of its association with the obligation of self-preservation as one of the highest priorities of the governor due to his population.

The builders of the capitals of the Central Maghreb sought to ensure the natural defensive security advantage when planning their capitals, which represented command centers; Starting with the "Rostamites" in both "Tihert" and "Sedrata", moving to what was built by the kings of "Sanhaja" in "Achir", the "Hammadid Qul'a (castle)" and "Bejaia", ending with "Tlemcen", the capital of "Beni Zayan" the "Zenati".

Keywords: The Natural Immunizing; Central Maghreb Capitals; The Rostamites; The Sanhajites; The Zenati.

[1] المؤلّف المراسل: **لعناني صلاح الدين** البريد الإلكتروني: **salaheddine.laanani@univ-constantine2.dz**

1. مقدمة:

يَلْحظ المتأمل لتعريف المدينة تلك الصفة الأمنية التي قُرنت بها من خلال تعريفات أشهر المعاجم اللغوية العربية؛ "فالفيروزابادي" و"ابن منظور" مثلا يتفقان على أن المدينة هي: « الحصن يبنى في أُصطُمَّةِ*الأرض، وكل أرض يُبنى بها حصن في أُصطُمَّتها فهي مدينة»[1]، وعليه فقد عُدّ حسن اختيار مواقع المدن الشغل الشاغل لمؤسسي المدن منذ القِدم، وذلك بإخضاعه لشروط واعتبارات محددة تباينت من حيث الأهداف والظروف، الأمر الذي جعل الملوك والحكّام يطلبون المشورة والنصح من الحكماء والمختصين في مِثل هذه المسائل المصيرية، وهو ما أكّده "القزويني" بقوله: «إن الملوك الماضية لما أرادوا بناء المدن أخذوا آراء الحكماء في ذلك»[2]، ما نتج عنه دقة ضوابط وشروط أليت بمسألة خطِّ الحواضر، وكذا تنوعها قصد الإلمام بضروريات الانسان التي أوجزها "ابن قتيبة" في قوله بأن: «المدائن لا تُبنى إلا على ثلاثة أشياء: على الماء والكلأ والمحتطب»[3]، مع أنه في الحقيقة استنباط منه لما ورد في حديث المصطفى ﷺ القائل: ﴿المسلمون شركاءُ في ثلاثٍ: في الكلأِ والماءِ والنارِ﴾[4].

وقد أمعنت كتب الفقه الاسلامي والسياسة الشرعية فيما هو أبعد وأعمق رجاءً منها الوصول إلى ما يضمن صحة الرعية وتحقيق رفاهيتها، مستندين في ذلك إلى مضامين الشريعة الإسلامية التي تكْفل أولوية حفظ النفس كأحد الضرورات التي تُعرف بالكليات الخمس المندرجة ضمن مقاصد الشريعة الإسلامية العامة؛ فهي تُقر بأن كل الأبنية التي تنضوي ضمن ما من شأنه أن يحمي نفس وعقيدة المسلم في خانة الواجب بناؤه[5]، فكان لزامًا على الحاكم المسلم –كراعٍ للرعية– الشروع في إنشائها، لأنها من الضرورات، والحرص على تجسيدها كأولوية على حساب الأبنية التي تندرج ضمن تصنيفات أخرى أقل أولوية، وهو ما نحاول تبيانه عبر مقالنا هذا بالتطرق لمدى الاهتمام بالمرحلة الأولية في اختيار مكان البناء من تحصين طبيعي بأهم المراكز الحضرية بالجزء الأوسط من المغرب الاسلامي، لكونه أحد الأساسات التي ينبني عليها اختيار الموضع الجيد قبل الشروع في خطِّه، وهو المنطلق الذي نتقصّى مدى مراعاته حين اختيار مواقع عواصم المغرب الأوسط؟

2. التحصين الطبيعي:

يُعرّف التحصين الطبيعي على أنه قاعدة وامتداد الاستحكامات الدفاعية المنشأة؛ إذ يُعتبر خطوة أولية تسبق التأسيس الحقيقي لدفاعات المدن، فهو الأساس والمتحكم الرئيس في كيفية ضبط النظام الدفاعي وطريقة إنشائه ككل، وذلك بالتركيز على

---

* أُصطُمَّةِ أو أسْطُمّة، يقال أسْطُمّة البحر لغة في أُصْطُمّه: وهي مجتمعه ووسطه. ومنه أصطمة الأرض بمعنى وسطها. يُنظر:
الفراهيدي (أبي عبد الرحمن الخليل بن أحمد) (100–175هـ/ 718–786م)، كتاب العين، تحقيق: مهدي المخزومي وإبراهيم السامرائي، الجزء السابع، دار ومكتبة الهلال للنشر، مصر، د ت ن، ص 221.

[1] الفيروزابادي (مجد الدين محمد بن يعقوب الشيرازي) (عاش في الفترة ما بين 729هـ–817هـ)، القاموس المحيط، ج 04، نسخة مصورة عن الطبعة الثالثة للمطبعة الأميرية، 1301هـ، الهيئة المصرية العامة للكتاب، مصر، ص 266.
ابن منظور (أبي الفضل جمال الدين محمد بن مكرم)، لسان العرب، مج 13، دار صادر، بيروت–لبنان، د ت ن، ص 402.

[2] القزويني (زكرياء بن محمد بن محمود) (ت 682هـ)، آثار البلاد وأخبار العباد، دار صادر، بيروت–لبنان، د ت ن، ص 08.

[3] ابن قتيبة (أبي محمد عبد الله بن مسلم الدينوري) (ت 276هـ)، عيون الأخبار، ج 02، مطبعة دار الكتب المصرية، القاهرة، 1996م، ص 213.

[4] أخرجه الإمام: أبي داود (سليمان بن الأشعث الأزدي السجستاني) (202هـ–275هـ)، سنن أبي داود، الجزء الخامس، كتاب البيوع، الباب:(62) باب في منع الماء، الحديث رقم 3477، حققه وضبط نصه وخرّج أحاديثه وعلّق عليه: شعيب الأرنؤوط ومحمد كامل قروبللي، (طبعة خاصة)، دار الرسالة العالمية، دمشق–سوريا، 1430هـ/2009م، ص 344.

[5] ابن عاشور (محمد الطاهر)، مقاصد الشريعة الإسلامية، تقديم: حاتم بوسمنة، دار الكتاب المصري، القاهرة–مصر، 2011م، ص 07.

الأماكن المكشوفة انطلاقا من كونها نقاط ضعف بالموقع[1]، نتيجة سهولة بلوغها من قِبل المهاجمين مقارنة بالتي تُحد بجبل أو التي تعلو هضبة أو المحاطة باستدارة نهر أو بحر[2]، وعليه وجب زيادة قدر التحصين بمكامن الضعف عبر مضاعفة الاستحكامات الدفاعية المختلفة بها؛ كإنشاء الخنادق العميقة وزيادة سُمك الجدران وإعلائها، وتقريب المحارس والأبراج ببعضها البعض قصد زيادة مناعتها وضمان التحكم بالفضاء المحيط بها خارجا[3]، وعليه فقد سعى خطّاطو المدن إلى التموقع في المضارب المرتفعة كالتي تكون فوق هضبة أو تلة أو جبل قصد التميُّز بجملة من الميزات لعل أبرزها السّبق والأفضلية في صد الهجمات والغارات، وضمان مراقبة تحركات المعادين عن بعد، إضافة إلى وضوح الرؤية وحسن توجيه مختلف الأسلحة وحيازة المنعة من مختلف الطوارئ والعوارض[4].

لما كانت غاية مؤسسي المدن الإسلامية «تأبيد قواعدها وضمان استحالة زوالها إلا بقضاء محتوم أو أجل معلوم» على حد تعبير "الماوردي"[5]، استدعى الأمر تطبيقا صارماً لشروط دقيقة من بينها المناعة الطبيعية قبل إقامة أسس مُدنهم وفق ما نصّته الشريعة الإسلامية، والملاحظ هو وُرود هذا الشرط مقرونا في العديد من المصادر الجغرافية التي خاض مؤلفوها في مسائل خطِّ الأمصار بالشروط الصحية التي تضمن جودة الهواء والبعد عن الأسقام، أمر نلحظه عند "ابن أبي الربيع" الذي أدرج ضمن شروطه الستة لاختطاط المدن شرط «اعتدال المكان وجودة الهواء»[6]، والأمر نفسه عند "ابن الفقيه" الذي يرى «بأن أصح الأماكن ما كان على الجبال والأماكن التي تواجه سهب الصبا، وما كان في قعور وأغوار ومواجهة بريح الجنوب أو الدبور فهي مواضع رديه مولدة للأمراض»[7]، كما يحذو "الماوردي" حذوهما بإقراره في شرطيه الثالث والخامس لوجوب « اعتدال المكان الموافق لصحة الهواء والتربة، تحصين منازله من الأعداء الذعار»[8]، أما "القزويني" فيوضح شرط التحصين الطبيعي بشكل أدق فيرى بأن «الحكماء اختاروا أفضل ناحية في البلاد، وأفضل مكان في الناحية، وأعلى منزل في المكان من السواحل والجبال مهبّ الشمال... واحترزوا من الآجام والجزائر وأعماق الأرض فإنها تورث كرباً وهرماً...»[9]، بينما يعتمد "ابن أبي زرع " تخطيط مدينة فاس زمن الأدارسة أنموذجا يُقتدى في سبيل ضمان المنعة الطبيعية للموقع[10].

---

[1] CAPTAIN LENDY, (F.G.S/ F.L.S, C), Treatise on Fortification, printed and published by: W Mitchell Military Bookseller, London- England, 1862, p 30.

[2] GIOVANNI (G), L'Urbanisme face aux Villes Anciennes, traduit de l'italien par : Mandosio (Jean-Marc) et Petita (Amélia) et Tandille (Claire), Edition Du Seuil (Traduction), France, Mai 1998, pp 53-54.

[3] COMITE D'OFFICIERS DE TOUTES ARMES, Nouveau Dictionnaire Militaire, Sous La Direction D'un : Officiers Supérieur, Librairie Militaire De L. Boudoin, Paris-France, 1892, pp 140, 318, 548.

[4] DE CHESNEL, Encyclopédie Militaire et Maritime, -dictionnaire des armées de terre et de mer-, 1ère partir, 3ème édition, Armand le chevalier éditeur, Paris-France, 1865, pp 548-549.

[5] الماوردي (أبو الحسن علي بن محمد بن حبيب) (ت 450هـ/ 1058م)، تسهيل النظر وتعجيل الظفر في أخلاق الملك وسياسة المِلك، تحقيق ودراسة: رضوان رضوان السيد، ط 02، مركز ابن الأزرق للدراسات التراث السياسي، بيروت–لبنان، 1432هـ/2012م، ص 260.

[6] ابن أبي الربيع (شهاب الدين أحمد بن محمد) (ت 272هـ/ 885م !)، سلوك المالك في تدبير الممالك، تحقيق: عارف أحمد عبد الغني، دار كنان للطباعة والنشر والتوزيع، دمشق–سورية، 1996م، ص 106.

[7] ابن الفقيه (أبو بكر بن أحمد الهمذاني) (ت نحو 340هـ/951م)، مختصر كتاب البلدان، دار إحياء التراث العربي: بيروت–لبنان، 1408هـ/1988م، ص 143.

[8] الماوردي، المصدر السابق، ص 260.

[9] القزويني، المصدر السابق، ص 09.

[10] للاستزادة يُنظر: ابن أبي زرع الفاسي (علي بن عبد الله) (عاش خلال القرن 08هـ/14م)، الذخيرة السنية في تاريخ الدولة المرينية، اعتناء ونشر: محمد بن أبي شنب، مطبعة جول كربونل، الجزائر، 1339هـ/1920م، ص ص 29–31.

ويتجلّى شرط التحصين الطبيعي بشكل أوضح فيما رواه الخبير بأحوال علم الاجتماع البشري "ابن خلدون" الذي يحذو "ابن الأزرق" حذوه في إقرار وجوب تطبيق مبدأي: دفع المضار وجلب المنافع؛ وهو الرأي المستقى من القاعدة الفقهية «درء المضار (المفاسد) أولى من جلب المنافع»[1]، وذلك بأن «يراعى لها أن يدار على منازلها جميعا سياج الأسوار وأن يكون وضع ذلك في متمنّع من الأمكنة إما على هضبة متوعرة من الجبل وإما باستدارة بحر أو نهر بها حتى لا يوصل إليها إلا بعد العبور على جسر أو قنطرة فيصعب منالها على العدو ويتضاعف امتناعها وحصنها»[2]، وهو ما يُفهمنا بمدى أهمية التحصين الطبيعي لديهما، ودليل ذلك أيضا إضافتهما لأمر يُراعَى في البلاد الساحلية على وجه الخصوص، وهو «أن تكون في جبل أو تكون بين أمة من الأمم موفورة العدد تكون صريخا للمدينة متى طرقها طارق من العدو» [3]. كلها ضوابط توجب الاتباع لمن أراد تأسيس بنيان حاضرته على سند صحيح يضمن دوامها وقائمتها في أحلك الظروف.

3. تيهرت عاصمة الدولة الإباضية الرستمية الأولى.

بعد الصدامات التي تبِعت القطيعة المذهبية عن الخلافة العباسية في المشرق، أيقن "عبد الرحمان بن رستم" استحالة اجتماع الإباضيين على مُلك جامع بالمغرب الأدنى والزاب عقب الغدر به وانهزامه في موقعة تهودا عام (153هـ) التي أعقبت حصار طبنة، فرأى وجوب تأسيس حاضرة تكون حرزا منيعا للإباضين [4]، «فأرسلوا الروافد في الأرض، فرجعوا فدلوهم على موضع تاهرت»[5]، تاهرت»[5]، «ونزل عبد الرحمان منه موضعا مربعا لا شعرى فيه، فقال البربر: نزل تاقدمت تفسيره الدف، وشبهوه بالدف لتربيعه»[6].

وقد اتسم القائد الرستمي بالدراية التامة بالأوضاع السياسية واطلاعه الجيد على الحركية السيادية آنذاك؛ فكان أن اختار موقعاً حقق من خلاله شرطي التموقع الأمني السياسي إضافة إلى المنعة الطبيعية، فكان لابد من التواري عن أنظار الخلافة العباسية وعُمالها من جهة، وعن الدول المجاورة ببلاد المغرب الإسلامي من جهة أخرى، ناهيك عن الابتعاد قدر الإمكان عن الشمال وبحره بنية الاحتراز من مفاجآت الأساطيل البيزنطية التي كانت تُملي على الدول الإسلامية مواضع عواصمها قبل القرن التاسع للميلاد،

---

[1] (لجنة من العلماء المحققين والفقهاء المدققين)، مجلة الأحكام العدلية (تحتوي على القوانين الشرعية والأحكام العدلية المطابقة للكتب الفقهية بعد أن وقعت لدى لدى الباب العالي موقع الاستحسان تعلقت الإرادة السنية بأن تكون دستورا للعمل بها)، **المادة** (القاعدة) 30، المطبعة الأدبية، بيروت–لبنان، 1302هـ، ص 27.

[2] ابن خلدون (عبد الرحمان بن محمد الحضرمي) (ق 8–9هـ)، المقدمة، المطبعة الأدبية، ط 03، بيروت–لبنان، 1900م، ص ص 347– 349. ابن الأزرق (أبي عبد الله) (ت 896هـ/1491م)، بدائع السلك في طبائع الملك، ج 02، تحقيق: علي سامي النشار، دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة، ط 01، القاهرة، 1429هـ/2008م، ص ص 699–701.

[3] ابن خلدون، المصدر السابق، ص 349. ابن الأزرق، المصدر السابق، ص ص 701–702.

[4] LEWICKI (Tadeusz), L'État nord-africain de Tahert et ses relations avec le soudan occidental à la fin du VIII[e] et au IX[e] siècle, Cahier d'études africaines, vol : 02, N 08, 1962, p 514.
بحاز (إبراهيم بكير)، الدولة الرستمية 160–296هـ / 777–909م، جمعية التراث للنشر، ط 2، القرارة– غرداية– الجزائر، 1414هـ/1993م، ص ص 84–85.

[5] أبي زكرياء (يحيي بن أبي بكر الوارجلاني) (ت 471هـ)، سير الأئمة وأخبارهم (تاريخ أبي زكريا)، تحقيق وتعليق: إسماعيل العربي، الكتبة الوطنية، الجزائر، 1399هـ/1979م، ص 53.

[6] البكري (أبي عبيد الله) (ق 05هـ/11م)، المسالك والممالك، حققه وقدم له: أدريان فان ليوفن وأندري فيري، ج 02، دار الغرب الإسلامي، لبنان، 1992م، ص 735.

وذلك بأن كانت جلّها داخلية[1]، والحقيقة أن مرد ذلك عائد للميزة البرية للجيوش الإسلامية دون البحرية آنذاك، وعليه وقع اختياره على موقع قال عنه "ابن الفقيه" بأنه يبعد عن إفريقية «مسيرة شهر على الإبل»[2] وعن «تلمْسين زمن الأدارسة مسيرة خمس وعشرين يوما» حسب "ابن خرداذبة"[3]، وعن البحر بـ: «أربع مراحل[4]» حسب "الشريف الإدريسي"، غير أن "الأصطخري" دقق أكثر في المسافات فقال: «بأنه يبعد عن القيروان عاصمة بني الأغلب بما يقارب عن اثنان وثلاثون (32) مرحلة؛ وذلك باحتساب البُعد بين القيروان وسطيف المقدر بـ: اثنا عشر (12) مرحلة يُضاف إليه البعد بين سطيف وتيهرت المقدر بـ: عشرون (20) مرحلة، وعن فاس الإدريسية بخمسين (50) مرحلة، ومنها إلى سجلماسة المدرارية بنحو خمسين (50) مرحلة»[5].

وبحسب المخطط الافتراضي لموقع المدينة المنجز من طرف: (مارسي Marçais) و (لامار Lamare) سنة 1941م (أنظر المخطط 01)، فإنه يتضح جليا بأن عاصمة الإباضيين كانت تشغل المجال الجغرافي الواقع بين الربوتين؛ بحيث ترتفع الشمالية عن مستوى سطح البحر بـ: 862متر، وهي التي يُعتقد أن "الأمير عبد القادر" شيد عليها قلعته تاقدمت، في حين أن الربوة الجنوبية ترتفع بـ: 850 متر، وأبرز ما يميزها هي تلك الآثار التي يُعتقد بأنها بقايا معصومة الرستميين مع تحديد أبعاد المدينة التي قُدرت على امتداد (1100متر شرق–غرب) و (بين 700 و800متر شمال–جنوب)[6]، غير أن (كادنا Cadenat) حاول التدقيق أكثر في اتجاهات الموقع فوصفه بأنه ما كان يشغل المنخفض الواسع المحصور بين التلّتين بعلو متقارب، بينما تشغل آثار المدينة الحيّز (الشمالي–الشرقي) و (الجنوبي– الغربي) المحصور بينهما، كما أنه ضبط إحداثياته قياسا بمحطة السكة الحديدية المارة عبره، والتي تحصره بين: (س/X **366**،2/2،367) و (ع/**Y** 3،3/227،228)[7]، إضافة إلى أن مخطط (مارسي Marçais) و (لامار Lamare) يدعم بشكل واضح الوصف الذي قدمه (كادنا Cadenat)، بالرغم من أن دراسة "بويحياوي" تؤكد أن حيّز موقع العاصمة الرستمية يفوق المخطط الافتراضي لـ(مارسي Marçais) و (لامار Lamare)، مع ذكره أنه اعتمد في تحديد ذلك على صورتين جويتين التُقطتا عامي 1977 و1988م[8]؟ غير أن ما يهمنا بالأساس في هذه الدراسة هو طبوغرافية الموقع واستراتيجية اختياره.

---

[1] أرشيبالد (ر. لويس)، القوى البحرية والتجارة في حوض المتوسط 500–1100م، ترجمة: أحمد محمد عيسى، مراجعة وتقديم: محمد شفيق غربال، مكتبة النهضة المصرية، ص 162.

[2] ابن الفقيه (أبي عبد الله أحمد بن محمد بن إسحاق الهمذاني) (عاش في القرن03هـ)، البلدان، تحقيق: يوسف الهادي، ط 01، عالم الكتب، 1416هـ/1996م، ص 132.

[3] ابن خُرْداذْبة (أبي القاسم عبيد الله) (ق 03هـ/09م)، المسالك والممالك، مطبعة بريل، ليدن–لبنان، 1889م، ص 88.

[4] الإدريسي (أبي عبد الله محمد بن محمد بن عبد الله بن إدريس الحمودي الحسني) (ت 560 هـ/1164م)، نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، مج 01، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة–مصر، 1422هـ/2002م، ص 255.

[5] الأصطخري (أبو إسحاق إبراهيم بن محمد الفارسي المعروف بالكرخي) (ق 08هـ/10م)، مسالك الممالك وهو معول عن كتب صور الأقاليم للشيخ أبي يزيد يزيد أحمد بن سهل البلخي، طبع بمدينة ليدن المحروسة، بمطبعة بريل، 1870، ص 46.

[6] MARÇAIS (Géorges), Lamare (A, Dessus), Recherches D'archéologie Musulmane (Aout-Septembre 1941), Revue Africaine Volume 90, A Jourdan Libraire-Éditeur, Alger, 1946, pp 29, 31-32.

[7] CADENAT (Pierre), Recherches à Tihert Tagdempt,1958-1959, Bulletin D'archéologie Algérienne, Tome VII, Fas II , 1977-1979 , p 394.

[8] بويحياوي (عز الدين)، معطيات جديدة حول تاهرت تاقدمت، الملتقى الثاني للبحث الأثري والدراسات التاريخية، أدرار – 05/29 إلى 1994/06/02م، وزارة الاتصال والثقافة (مديرية التراث الثقافي والفنون التقليدية)، الجزائر، 1994م، ص ص 22، 28.

يُفهم من تحليل وصف (مارسي Marçais)–(لامار Lamare) و(كادنا Cadenat) لطبوغرافية الموقع نمط التحصين الطبيعي المدروس الذي حظيت به حاضرة "ابن رستم"، إذ يجمع جغرافيًا بين العلو والمنعة والاحتماء بين الجبال والأودية، وهو ما جعل "أبي زكريا" يصفها بقوله «أنها كانت حرزا وحصنا منيعا ... وسُميت بأم العسكر عسكر المبارك»[1]، إضافة إلى الأوصاف الواردة في عديد المصادر الجغرافية؛ فيذكر "اليعقوبي" بأن «تاهرت مدينة كبيرة آهلة بين جبال وأودية ليس لها فضاء»[2]، بينما فصّل "البكري" أكثر حين قال: «وهي في سفح جبل يقال له جزول...وهي على نهر يأتيها من جهة القبلة يسمى مينة وهو في قبليها، ونهر آخر يجري من عيون تجتمع تسمى تاتش... »[3]، ويضيف " الإدريسي" أنها على «... قنة جبل قليل العلو»[4]، بينما يتفق "الحميري" مع"صاحب الاستبصار" بأنها: « في سفح جبل يُسمى قَرْقَل (قزول/جزول)، وهي على نهر كبير يأتيها من ناحية الغرب، يُسمى مُنية، ولها نهر آخر يجري من عيون تجتمع يسمى تَانَس (تاتش)»[5].

رجّح (بودان Baudens) في إشارته لآثار موقع "تاقدمت" فرضية وجود "مركز" بها يعود للفترة الرومانية إضافة إلى بقايا منزل قديم وعمود بتاج كورنثي بالموقع [6]، مُستدلا برواية "الحسن الوزان" القائل بأن "تقْدِمْتْ" «مدينة قديمة جدا أسسها الرومان...حسب قول بعضهم» [7]، وهو ما يفتح مجالا للشك للشك حول السند المذكور؟ مع أن (كادنا Cadenat) الذي تعامل بشكل مباشر مع آثار الحاضرة بيّن ضرورة عدم الخلط بين الموقعين القديم والحديث[8]، وهو نفسه الاشكال الذي انتبه له أصحاب المصادر الجغرافية من قبلُ، حيث ذكر "الادريسي" بأن «تاهرت: اسم لمدينتين متقابلتين بأقصى المغرب، يقال لإحداهما تاهرت القديمة

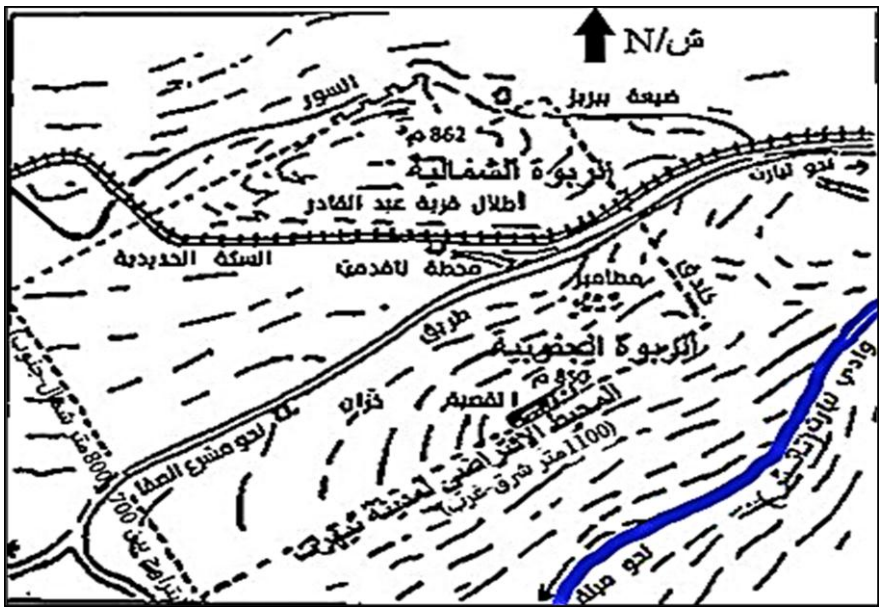

المخطط 01. مخطط افتراضي لمدينة تيهرت–تاقدمت (بتصرف الباحث).

المصدر: Marçais (Géorges), Lamare (A, Dessus), Op-Cit, p 29.

---

[1] أبي زكرياء، المصدر السابق، ص 54.

[2] اليعقوبي (أحمد بن أبي يعقوب إسحاق بن جعفر بن وهب بن واضح) (ت 284هـ)، البلدان، دار الكتب العلمية، بيروت–لبنان، د ت ن، ص ص 197–198.

[3] البكري، المصدر السابق، ج 02، ص ص 733–734.

[4] الإدريسي، المصدر السابق، ص 255.

[5] مجهول (يُنسب لابن عبد ربه الحفيد) (ق 06 هـ/12م)، الاستبصار في عجائب الأمصار، نشر وتعليق سعد زغلول عبد الحميد، دار الشؤون الثقافية والعامة للنشر، بغداد–العراق، د ت ن، ص 178. الحميري (محمد بن عبد المنعم) (ق 08هـ/14م)، الروض المعطار في خبر الأقطار، تحقيق: عباس إحسان، مكتبة لبنان، بيروت – لبنان، 1984م، ص 126.

[6] BAUDENS (Lucien), Relation historique de l'expédition de Tagdempt, Germain-Baillière libraire- éditeur, Paris-France, 1841, p 21.

[7] الحسن الوزان، وصف إفريقيا، ج 02، ترجمة: محمد حجي ومحمد الأخضر، ط 02، دار الغرب الإسلامي، بيروت–لبنان، 1983، ص 40.

[8] CADENAT (P), Op-Cit, p 393. Gsell (S), Op-Cit, p 02.

وللأخرى المحدثة»[1]، وأكد "البكري" بأن «على خمسة أميال منها تيهرت القديمة، وهي حصن لبرقجانة (تيهرت القديمة) وهو في شرقي الحديثة...فبنوا حينئذ تيهرت السفلى، وهي الحديثة»[2]، إلا أن استحداث "الأمير عبد القادر" لعاصمته "تاقدمت" بالموقع زاد بدوره من درجة التضارب التاريخي نظير إعادة استخدامه للحجارة التي تعود لفترات أقدم[3].

4. العاصمة الرستمية الثانية: سدراتة.

عقِب المدّ الفاطمي الذي اكتسح بلاد المغرب الإسلامي نهاية القرن (3هـ/ بداية ق 10م) والذي كانت من نتائجه سقوط العاصمة الأولى للرستميين (تيهرت)، اضطر بقية الإباضيين للفرار جنوبا صوب قفار الصحراء مخافة الهلاك متحصنين في بادئ الأمر بموقع (قارة-جبل كريمة) لغاية انقضاء الخطر الشيعي المحدق بهم[4]، لينتقلوا بعد ذلك إلى موقع سدراتة الذي قال عنه "ابن خلدون" بأنه موطن قبيلة "سدراته" أحد بطون قبيلة "لواتة البترية"[5]، والذي يمكننا تحديده بالاعتماد على كل من (الخريطة 01)، إضافة إلى المعلومات التي نستقيها من كتب الأجانب الذين وقفوا على أطلال المدينة بداية بالرحالة الفرنسي (لارجو Largeau) الذي حدد موقعها حين وصوله إليها بتاريخ (08 جوان 1877م) بمسافة تبعد أزيد من (04 كلم) جنوب-شرق موقع يؤرّخ للعصر الحجري (ورشة لحجارة الصّوان)، والذي يبعد بدوره بـ (150 متر) جنوب-شرق موقع (كهف السلطان /غار السلطان)[6].

[1] الإدريسي، المصدر السابق، مج 02، ص 07.
[2] البكري، المصدر السابق، ج 02، ص 734.
[3] BAUDENS, Op-Cit, p 20.
[4] الدرجيني (أبي العباس أحمد بن سعيد) (توفي حوالي 670هـ)، طبقات المشايخ بالمغرب، ج 01، تحقيق: إبراهيم طلاي، 1394هـ/1974م، ص 95.
[5] ابن خلدون (عبد الرحمان) (ق 8-9هـ)، تاريخ ابن خلدون المسمى ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر، ج 06، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت-لبنان، 1421هـ-2000م، ص 187-188.
[6] LARGEAU (Victor), le pays de Righa, Ouargla, Voyage à Rhadamès, Librairie Hachette et C^{ie}, Paris-France,1879, pp 185-186.

وقد قدّر (تاري Tarry) -أول من أجرى حفرية بالموقع شهر (جانفي 1881م)- بأن بقايا المدينة تبعد مسافة (04.5 كلم) من الجهة الشمالية-الشرقية لجبل العباد (قمة المصلين) أو كما سمّاه بـ (جبل إباض)[1]، في حين حددت (فان برشم Van Berchem) عام (1950م) موقع سدراتة بأنه يقع على بعد (08 كلم) جنوب-غرب ورجلان (ورقلة)، وبنحو (05 إلى 06 كلم) شمال-غرب الكريمة (قارة كريمة)، وبحوالي (05 كلم) جنوب-غرب رويسات[2] (أنظر الخريطة 01). وقد كان الرّحالة الفرنسي (لارجو Largeau) أول من وصف أطلال سدراتة فقال: « بأنها عبارة عن ربوتين تعلوهما الرمال ويفصل بينهما واد تبدو عليه آثار جريان الماء العذب من خلال الصدفيات (Coquillages) التي كانت عالقة بجوانبه»[3]، وقد تمكنت (فان برشم Van Berchem) من خلال التصوير الجوي الذي أجرته في (مارس 1950م) من تحديد تموقع المدينة باتجاه الشمال-الغربي إلى الجنوب-الشرقي على امتداد حوالي (02 كلم) طوليا وبحوالي (600 متر) عرضيا[4]، وهو ما يثير إشكالية اختيار الموقع من الجانب الدفاعي الدفاعي الطبيعي وسط رمال الصحراء؟

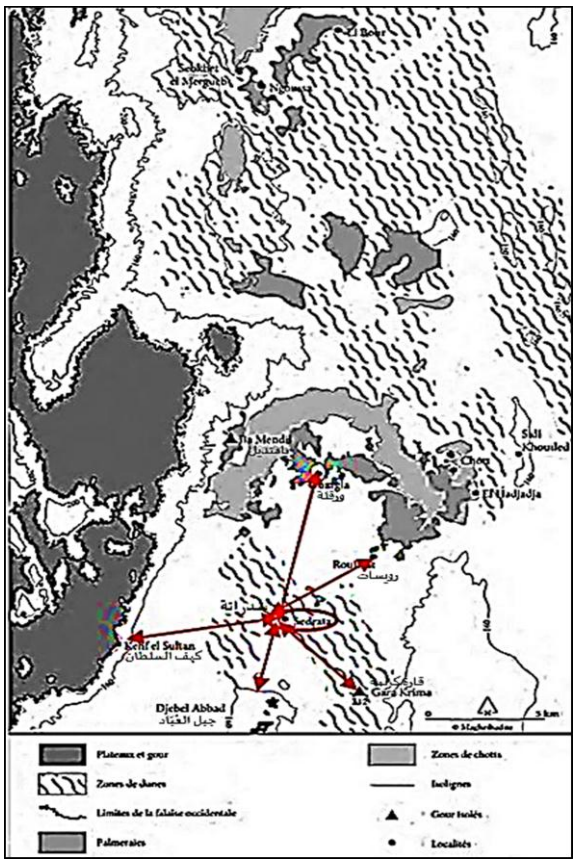

الخريطة (01) موقع مدينة سدراتة (بتصرف الباحث).

المصدر: AILLET (Cyrille), Le bassin de Ouargla : Foyer Ibadite et Carrefour du Sahara médiéval, Sedrata, Histoire Et Archéologie D'un Carrefour Du Sahara Médiéval, A La Lumière Des Archives Inédites De Marguerite Van Berchem – Collection Casa De Velázquez

يجب الإجابة عن سبب نزول الإباضيين بها أول مرة في ظل تلك الظروف السياسية العصيبة لاستنتاج درجة المنعة الطبيعية للموقع؛ وعليه فإن القبول بالرأي القائل ببناء المدينة مباشرة عقب سقوط تيهرت (297هـ/909م) بعيد التصديق كقراءة عسكرية رغم أنه مُتبنّى من قِبل العديد من المؤرخين والباحثين الأجانب؛ إلا أن المعلومات التي أوردها (ليتيو Lethielleux) مفادها وجود المدينة منذ عام (42هـ/662م)، بناءا على معلومات مستقاة من مخطوطات استغلها في الدفع بإشكالية تاريخ التأسيس إلى منحى أعمق[5]، دون إغفال التلميحات التي لطالما صرحت بها (فان برشم Van Berchem) في مسألة الاستيطان بسدراتة؟ إضافة إلى أن قرار التوغل وسط فيافي الصحراء لا يكون إلا عن دراية وإلمام تامّين بالمستقر، بالرغم من أن المغزى كان يعني ضرورة الابتعاد قدر المستطاع عن الخطر الفاطمي.

---

[1] TARRY (Harold), Excursion Archéologique Dans La Valée De L'oued Mya, Revue D'ethnographie, Tome II, Ernest Leroux Editeur -Librairie de La Société Asiatique, Paris-france, 1883, p 29.

[2] VAN BERCHEM (Marguerite), Deux Compagnes de Fouilles a Sedrata en Algérien, Comptes rendus des séances de l'académie des inscriptions et des belles lettres, 96e année, N 2, 1952, p 243.
VAN BERCHEM (Marguerite), Sedrata. Un Chapitre Nouveau De L'histoire De L'art Musulmane. Campagnes De 1951 et 1952, In Ars Orientalis, Vol I, 1954, p 157, 160.

[3] LARGEAU, Op-Cit, pp 186-187.

[4] VAN BERCHEM (M), Sedrata Et Les anciennes Villes Berbères Du Sahara Dans Les Récits Es Explorateurs Du XIX Siècle, Bulletin De L'institut Français D'archéologie Orientale, N 59, Le Caire-Egypte, 1960, p 160.

[5] للاستزادة حول الرأي المتبنى من طرف (ليتيو Lethielleux) يُنظر: LETHIELLEUX (Jean), Ouargla cité Saharienne des origines au début du XX siècle, Paul Guenther, Paris-France,1983, pp 23-38.

يوضح التحليل الجيولوجي-الطبوغرافي لموضع (سدراتة-إسدراتن) بأنه يقع ضمن منخفض حوض ورقلة بمنطقة السباخ الملحية التي تتميز بوفرة المياه الجوفية بغزارة، بدليل قرب الوديان والعيون التي كانت (عين الصفا) أشهرها، ناهيك عن الآبار المتعددة التي كانت تضمن التزود بالماء الذي يضمن الاستقرار والذي أوجب التفكير في حلول عسكرية أيام الحروب والحصارات، وهو ما نراه مُجسدا في مواقع مجاورة تتميز بالتحصين الطبيعي الممتاز: قارة كريمة، جبل العباد وكهف السلطان، والتي تمكّنهم من نقل ميدان المعركة إليها في ظرف وجيز (أنظر الخريطة رقم 01)، بل وتمنحهم أفضلية دفاعية طبيعية ممتازة في قيادة المعارك وضمان الاعتصام بها، ولعل اتقاء الخطر الشيعي خير مثال على ذلك، فالجهة الغربية مؤمنة بفضل الحصار الطبيعي الذي يمثله العرق الغربي، يُضاف له مجموع الهضاب والمرتفعات الصخرية التي يشتهر بها (كهف السلطان) وتموقع وادَي مية وإغرغار على مقربة منها، بينما يحد العرق الشرقي والسباخ التي تتقدمها (قارة كريمة) مشكّلة حواجز ومناطق غير مأمونة للعدو، ومُصعّبة من مأمورية كل من أراد تطويقها بنية الغزو؛ حيث لا تصلح تلك الأراضي لاتخاذها كمعسكرات للحصار، أما الجهة الشمالية فتحدها ورجلان والهضاب الصخرية المتصلة بالسباخ والشطوط، إضافة إلى أن تلك المراكز العمرانية كانت تمثل معاقل إباضية تُوظف كحزام دفاعي متقدم زمن الحروب، في حين مثّل الجنوب الامتداد الشاسع للتضاريس والسباخ المترامية الأطراف، مكملة منظومة السباخ والشطوط والجبال التي كانت تحصر موقع سدراتة وسط الكثبان الرملية التي سرعان ما غطت المدينة حين تم هجرها، لتوصف فيما بعد على أنها المدينة (بومباي Pompéi) المخفية تحت الرمال[1](أنظر الخريطة رقم 01).

تختلف المدينة في البيئة الصحراوية اختلافا جذريا عن باقي مدن المواقع الجغرافية (الساحلية، الجبال، السهول، الهضاب، حواف الأنهار)، ومرد ذلك أن الماء يكون المبتغى الأساس في تحديد مواقع الحواضر، وعليه فقد مثّلت الواحات ومناطق السباخ وبعض الأودية المنطلق الفعلي في تأسيس التجمعات البشرية، ما يفسر بدرجة أوضح انتقال الإباضيين نحو تجمع عمراني أكثر لحمة في وادي ميزاب والمناطق المجاورة مثل ورجلان، على اعتبار أن الماء في النهاية يمثل المرجع الأول والأهم في إقرار الاستيطان، خاصة بالصحراء أين تكاد تنعدم الحلول بشأنه.

5. عاصمة الدولة الزيرية الصنهاجية: أشير.

قال (مارسي Marçais): «إذا كان الكتاميون من ناصروا عقيدة الدولة الشيعية وكيانها، فلصنهاجة الفضل العسكري في تثبيت دعائمها وتوطيد أركانها»[2]، يلخص هذا القول دور النصرة الذي قام به الزيريون عبر القضاء على الثورات التي كانت مناهضة لسلطة الشيعة ببلاد المغرب كثورة صاحب الحمار، ومغراوة وبني يفرن الزناتيين آل أبي يزيد، والثائرين في المغرب الأقصى، وفي مسيلة من الأمويين والخارجيين والبربر الموالية لهؤلاء أو أولئك[3]، وكمكافأة أُسند لهم أمر إفريقية والمغرب قبل المسير صوب القاهرة سنة إحدى وستين وثلاثمائة[4].

---

[1] TARRY (Harold), Les Villes Berbères De La Vallée De L'oued Mya, Revue D'ethnographie, Tome III, Publié sous la direction de M Le D^{R} Hamy, Ernest Leroux Editeur -Librairie de La Société Asiatique, Paris, 1885, pp 09, 25, 27. ROLLAND (Georges), Géologie du Sahara Algérien et Aperçu Géologique sur le Sahara de l'océan Atlantique à la Mer Rouge, Imprimerie Nationale, Paris-France, 1900, pp 93-98

[2] MARÇAIS (Géorges), les arabes en berbérie du XI au XIV siècle *(thèse pour l'obtention du doctorat des lettres)*, Ernest Leroux 28 rue Bonaparte, Paris-France, 1913. p 46.

[3] ابن خلدون، ديوان العبر...، ج 06، المصدر السابق، ص ص 203-205.

[4] المقريزي (تقي الدين أحمد بن علي) (ت 845هـ/1442م)، اتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفا، تحقيق: جمال الدين الشيال، ج 01، مطابع الأهرام التجارية، قليوب-القاهرة-مصر، ط 02، 1416هـ/1996م، ص 99.

كان من تبعات رفْعِ الزيريين للواء الفاطمي وانتهاجهم لعقيدتهم تقبل ميراث الصراعات والمظالم المبذورة ضد القبائل الأمازيغية التي كانت دوما تتحين الفرصة للرد على ما أسيل من دمائهم، وهو ما حسب له "زيري بن مناد" جيدا بزيادة تحصين عاصمة مُستقره "أشير" منذ (324هـ/935م) [1]، والتي عظُم الحديث عن الأهمية الدفاعية لموقعها المستند على دعم طبيعي متميز، الأمر الذي تُرجم في العديد من الأوصاف التي وردت في المصادر التاريخية على غرار "البكري" الذي قال بأنها: « جليلة حصينة يُذكر أنه ليس في تلك الأقطار أحصن منها، ولا أبعد متنًا ولا مراما ولا يوصل إلى شيء منها بقتال إلا من موضع يحميه عشرة رجال، وهو في شرقيها الذي ينفذ إلى عين مسعود، وسائر نواحيها تزل عنها العيون، فكيف الأقدام وهي مع ذلك بين جبال شامخة محيطة بها دائرة عليها»[2]، وأورد "ابن حوقل" بأن زيري بن مناد: «عمل على جبلها حصنا مانعا ليس إلى المتحصن به طريق إلا من جهة واحدة ...»[3].

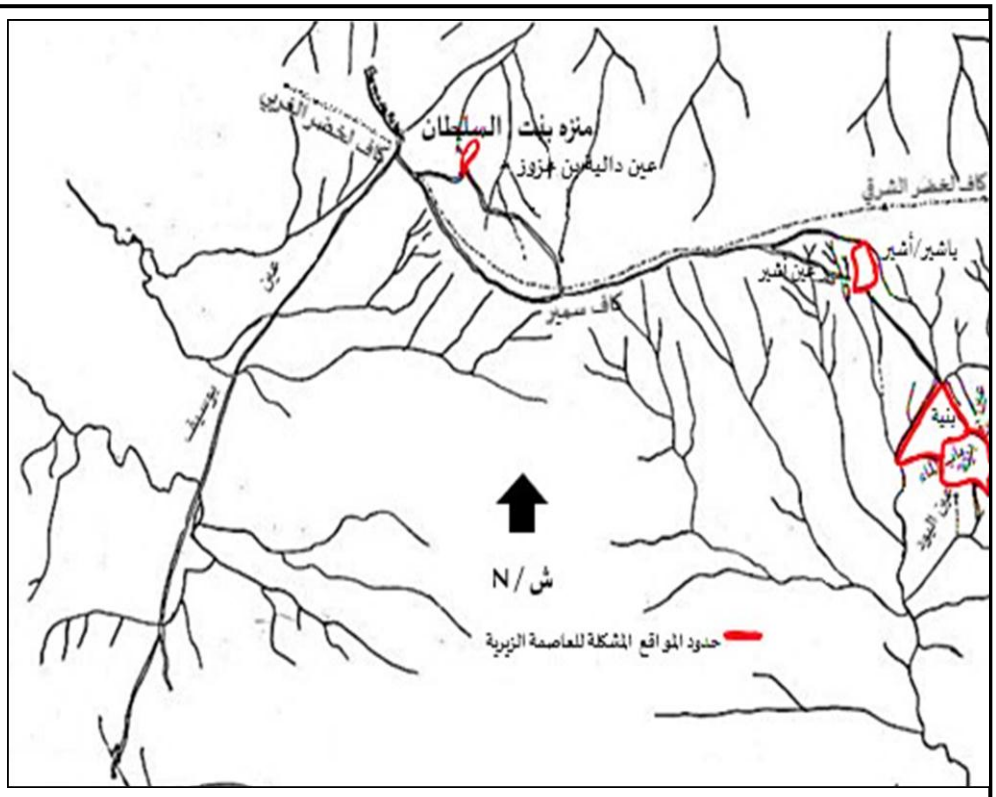

المخطط 02: مخطط طبوغرافيا وتركيب النوى الثلاثة للعاصمة الزيرية أشير (منزه بنت السلطان، أشير وبنية) (بتصرف الباحث).

المصدر: Bourouiba (Rachid), L'architecture Militaire De l'Algérie Médiévale, Office Des Publication Universitaires, l'Algérie, 1983, p 60.

مصدر المعلومات والتدقيق: Rodet (Capitaine), Les ruines D'Achir , Op-Cit, pp 87-94.

اختار بنو زيري موقعا ممتنعا طبيعيا لعاصمتهم التي هي اتحاد مجموع النُوى العمرانية الثلاثة: **منزه بنت السلطان** التي تتموضع بقمة جبل كاف لخضر الصخرية من الجنوب نحو الشمال مع انحدار إلى جهة الشرق، والتي ترتفع بحوالي 1300-1500متر عن سطح البحر بحسب اختلاف الجهات، وهي جنوب واد المزيب، وقد عدّها (باربريجر Berbrugger) الذي زارها عامي (1850 و 1852م) و (شاباسيار Chabassiere) عام (1869م) و(رودي Rodet) عام (1908م) النواة العمرانية الأولى للزيريين مع إعطائها وصف القلعة الحصينة،

[1] الحموي (شهاب الدين أبي عبد الله ياقوت بن عبد الله) (ق 06-07هـ)، معجم البلدان، مج 01، دار صادر، بيروت-لبنان، 1397هـ/1977م، ص 203. النويري (شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب) (ت 733هـ)، نهاية الأرب في فنون الأدب، الجزء (24)، تحقيق: عبد المجيد ترحيني، ط 01، دار الكتب العلمية، بيروت-لبنان، 1424هـ/2004م، ص 88.

[2] البكري (عبيد الله) ، المصدر السابق، ص ص 724-725.

[3] الحموي، المصدر السابق، مج 01، ص 203.

انطلاقا من المعاينة الميدانية لآثارها التي لا يتم الوصول إليها إلا عبر فلجات ضيقة بين صخور الجهة الجنوبية[1] (أنظر المخطط 02).

وتقبع **أشير** (**ياشير**) على هضبة بالمنحدر الجنوبي لجبل كاف لخضر من الجهة الشمالية الشرقية للنواة الأولى، وقد اعتبرها (باربريجرBerbrugger) أشير الجديدة، بينما أوضح (رودي Rodet) خلال معاينته الميدانية بأنه يحميها مجريان مائيان من جهتي الغرب والشرق، يتراوح عمقهما ما بين (25-40 متر)، ما يعني أنهما شكلا خندقين طبيعيين جعلا غزوها أمرا عسيراً، أما من الناحية الجنوبية فيحيط بها جُرف بارتفاع ما بين (05-10متر)، بينما اعتُبرت جهة الشمال المفصولة بمسافة قصيرة عن صخور جبل كاف لخضر الأضعف تحصيناً[2] (أنظر المخطط 02).

أما النواة الثالثة فهي: **بنية** التي أكد (رودي Rodet) أن موقعها أُنشئ لغرض دفاعي في الأساس، فهي تقابل أشير من جهة الجنوب على بعد (2.5 كلم) وتستند على المنحدرات الشمالية الغربية لكاف تسمسال-(تيسمسايل حسب (مارسي Marçais))- المهيمن على هضبة منحدرة من ثلاث اتجاهات: الغرب-الشمال-الشرق لينتهي من جهة الجنوب بقلعة تتوج القمة الصخرية لكاف تسمسال البارزة على واد الحوض، كما تنقسم المدينة إلى شقين : الشق العلوي الذي يحده الامتداد (جثمة/ركام) من باب الماء لغاية عين بنية، وقد رأى (رودي Rodet) أثناء زيارته (عام 1908م) أن هذا الجزء اتُّخذ كموقع للقيادة والمراقبة الأمنية حسبما يتضح من شكل بقايا السور المستطيل الذي يكاد يكون منكفئا على نفسه، وقد عزز (غولفن Golvin) هذا الرأي باعتباره الموقع العلوي تحصينا عسكريا خاص بالإشارات، في حين يتميز الشق السفلي باتساعه الجغرافي وغزارة الينابيع المتعددة وكثرة البقايا العمرانية، وهو ما اعتبره تطورا استدعته الحاجة للتوسع أو لرأي آخر مفاده أن الجزء السفلي خاص بالأمير وحاشيته مع اعترافه لحاجة رأيه إلى تدقيق أكثر[3] (أنظر المخطط 02).

أكد (باربريجرBerbrugger) و (شاباسيارChabassiere) على الأهمية القصوى لجبل كاف لخضر في المراسلة التي تمّت بينهما عام (1908م)، إذ اعتبراه السند الدفاعي الأساسي في تأسيس النواتين الأوليين، بينما حلّ كاف "تسمسال" محل الجبل الأول في إنشاء الموقع الثالث، وهذه الفكرة جعلت (مارسي Marçais) يؤكد على الأهمية الاستراتيجية لحسن التموقع الطبيعي وحصانته رغم عيب العزلة، ما جعل (باربريجرBerbrugger) يصفها بـ(المخلب La Griffe) انطلاقا من معناها بالبربرية (ياشير)، والذي يُطلق على المواقع العسكرية المتمركزة بامتياز، والتي تكون بمثابة مخلب الغالب الذي يهدد المغلوب دون هوادة، مع أن (لوفو Leveau) رأى رأيا آخر في حقيقة تسميتها اشتقاقاً من كلمتي (إيشيران Ichéréne و هنشير Henchir)، إلا أن واقعة فشل "زيري بن عطية الزناتي" الذي مات على أسوارها دون مقدرته على اجتياحها كانت خير دليل على رجاحة الرأي الأول، وتعبيرا مباشرا على مدى منعة الموقع وحصانة العاصمة الزيرية[4].

---

[1] CHABASSIERE (J) - BERBRUGGER (Louis Adrien), Le Kef Al-Akhdar et ses Ruines, Revue Africaine, Volume 13, A Jourdan Libraire-Éditeur, Alger, 1869, pp 116, 117.
RODET (Capitaine), Les ruines D'Achir, Revue Africaine, Volume 52 A Jourdan Libraire-Éditeur, Alger, 1908, pp 86-90.

[2] CHABASSIERE - BERBRUGGER, Op-Cit, pp 120-121. Rodet, Op-Cit, pp 90-91.

[3] RODET, Op-Cit, pp 91-94. MARÇAIS, Recherches Archéologique Musulmane, Revue Africaine, Volume 63, A Jourdan Libraire-Éditeur, Alger, 1922, pp 22, 24.
GOLVIN (Lucien), le Maghrib centrale à l'époque des zirides, Paris-France, 1957, pp 60-61.

[4] CHABASSIERE (J) - BERBRUGGER (L. A), Op-Cit, pp 116-120. MARÇAIS (Géorges), Op-Cit, pp 21-34. LEVEAU (PH), Ašir toponyme, Encyclopédie berbère, T VII, Edisud, la calade 13090, Aix en Provence-France, 1989, p 970.

6. عاصمة الدولة الحمادية الأولى –قلعة بني حمّاد–.

اشترط "حمّاد" على ابن أخيه "باديس بن المنصور" حين خروجه لمواجهة جموع مغراوة وبني يفرن سنة خمس وتسعين وثلاثمائة ولايتي أشير والمغرب الأوسط وكل بلد يفتحه وألا يستقدمه، فما فتئ بعد انتصاره الباهر حتى أسّس عاصمته "قلعة بني حمّاد" «ثمان وتسعين وثلثمائة »[1]، وقد قال "البكري" أنها « قلعة كبيرة...فلما كان خراب القيروان انتقل إليها أكثر أهل إفريقية، وهي اليوم مقصد التجار وبها تحل الرجال من العراق والحجاز ومصر والشام وسائر بلاد المغرب، وهي اليوم مستقر مملكة صنهاجة»[2]، ويزيد "ابن خلدون" في شأن تمصيرها أنه « نقل إليها أهل المسيلة وأهل حمزة وخربهما، ونقل – قبيلة– جراوة من المغرب وأنزلهم بها، وتم بناؤها وتمصّرها على رأس المائة الرابعة، وشيد من بنيانها وأسوارها واستكثر فيها من المساجد والفنادق، فاستبحرت في العمارة واتسعت في التمدن. ورحل إليها من الثغور والقاصية والبلد البعيد طلاب العلوم وأرباب الصنائع لنفاق أسواق المعارف والحرف والصنائع بها»[3]. غير أن تبعات هذا القرار التأسيسي كانت وخيمة على قبيلة صنهاجة عامة، بدليل غُدو بني عمومته الزيريين العدو الذي طال حربه لغاية الاتفاق المشهور المبرم بينهم والذي نتج عنه بأن «اقتسموا المظلة والتحموا بالأصهار، وافترق مُلك صنهاجة إلى دولتين: دولة إلى المنصور بن بلكين أصحاب القيروان، ودولة إلى حمّاد بن بلكين أصحاب القلعة»[4].

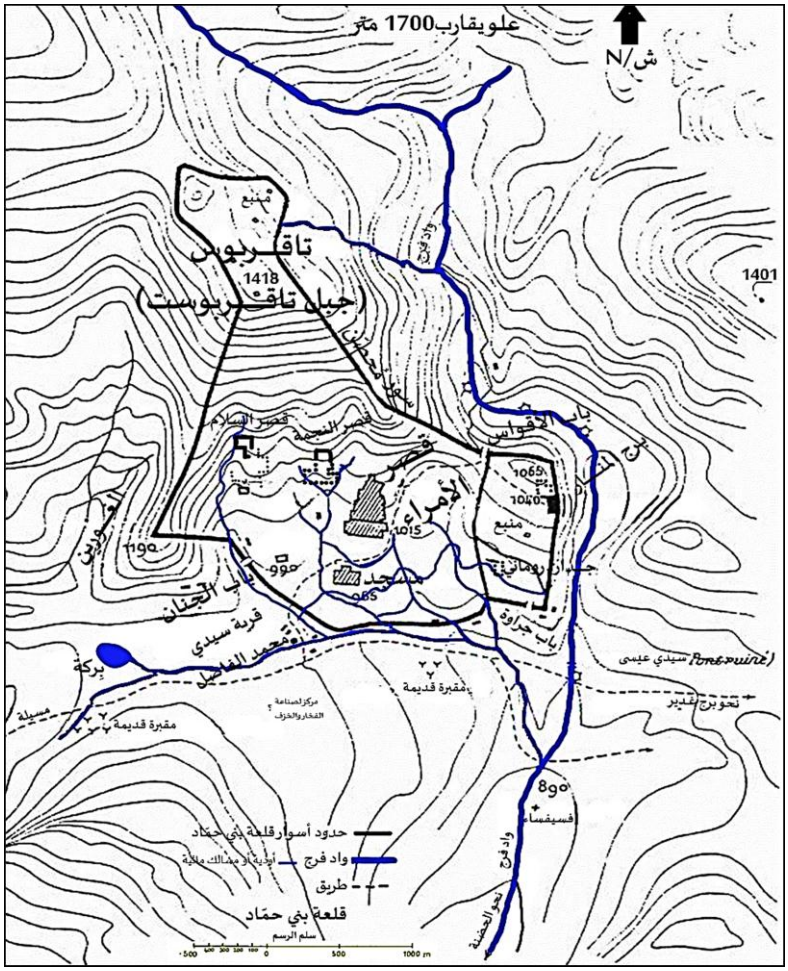

الخريطة رقم–02 – طبوغرافيا موقع قلعة بني حماد (بتصرف الباحث).

المصدر: De Beyli, Op-Cit, p 30

الاستعانة والتدقيق: Robert (M.A), Ruines, Op-Cit, p 220 (planche II)
Golvin (Lucien), le Maghrib centrale …Op-Cit, p 102.

موقع القلعة الحمّادية أحد أمنع المواقع الحضارية بالمغرب الأوسط بشهادة الدراسات التاريخية والأثرية الحديثة، وحتى المعاينة الميدانية تُثبت هي الأخرى ذلك، لكونه في سفح جبل كتامة (جبل عجيسة أو تاقربوست أو جبل المعاضيد) الذي يرتفع بحوالي 1100 متر، وهو ما أكسبها حصانة طبيعية عظيمة، وما وصف الموقع والمدينة بالقلعة إلا دليل يثبت مدلول الميزة الأمنية التي

[1] ابن خلدون، المصدر السابق، ج 06، ص 227.
[2] البكري، المصدر السابق، ج 02، ص 710.
[3] ابن خلدون، المصدر السابق، ج 06، ص 227.
[4] نفسه، ص 210.

اقترنت به، بحيث يصعب الوصول إليه من مختلف الجهات؛ فتحده من الشمال قمة تاقربوست الحصينة التي يبلغ مستوى الارتفاع بها 1418متر (أنظر الخريطة رقم 02)، وهو ما يعني استحالة اكتساحها من هذه الجهة مهما بلغت عُدّة وعتاد أعدائهم باتفاق أبرز المصادر الجغرافية على ذلك[1].

أما من الناحية الشرقية فهو يشرف على وادي فرج (أنظر الخريطة رقم 02) أو كما سُمي في عهد "بني حماد" بواد جراوة؛ والذي يمتد مجراه من الشمال نحو الجنوب، وبالنظر لمورفولوجيته العميقة فهو يشكل خندقا طبيعيا يفصل المدينة عن ضفته الشرقية التي بجبلي عمور وزروق، ليمتد مجراه بين جبل الرحمة ويتفرع منه آخر جهة اليسار (الغرب) كحد شمالي لسهول الحضنة الواسعة، وهو ما يعني استحالة رسم خطط عسكرية قصد الوصول إليه ولو طالت بالحصار، أما جنوبا فيُطل على شط الحضنة وسهوله الفسيحة، إضافة إلى مجرى مائي يصل إلى واد فرج وتمتد عبره طريق ملتوية تنفذ إلى المدينة عبر الطريق الشرقية المؤدية إلى المسيلة غرباً، وهي الجهة الأقل أمنًا بالموقع، ذلك أن جهة الغرب يحدها جبل الغورين الذي يبلغ علوه 1190 مترا، ليقف حاجزا طبيعيا يذود عنها بإحكام إضافة إلى مجرى مائي (سبيل)(خندق) يصعب اجتيازه بسهولة [2].

يوحي موقع قلعة الحماديين المحكم في تحصينه الطبيعي بأنه أشبه بالرباط الجهادي أو المعسكر المعد خصيصا لبسط النفوذ على مجال جغرافي معين، أو جعلها مركزا عسكريا متقدما للدخول في المواجهات والاحتدامات بشكل مباشر، وهو أشبه بالقلاع الرومانية–البيزنطية Castellum، لدرجة أن (غولفن Golvin) استغرب من قدرة انشاء "حماد" لكل تلك المنشآت المعمارية المختلفة (مسجد، قصور، حمّامات للعامة وأسواق...) في ذلك الموقع الصخري الذي يصعب حتى التفكير والاقتناع بالاستقرار به، وهو بهذا الرأي يؤكد فرضية استحالة الاستقرار الحضاري به لولا طغيان الفكر العسكري على مؤسسها الذي دون شك غلّب الأولوية الأمنية في سبيل إنشاء عاصمة مستقلة، تتموقع بين بني عمومته الزيريين الذين كانوا بالقيروان وبين الزناتيين القابعين في الجانب الغربي الأقصى من بلاد المغرب، ويدعم هذا الرأي المبني على استنتاجات ميدانية رأي آخر تاريخي جغرافي أورده "الحموي" حين قال «...ليس لهذه القلعة منظر ولا رواءٌ حسن إنما اختطها حماد للتحصن والامتناع»[3].

---

[1] يتضح الاتفاق من خلال أوصاف كل من: البكري: «...**وهي قلعة كبيرة ذات منعة وحصانة**»، المصدر السابق، ج 02، ص 710. الادريسي: «... **وهي في سند جبل سامي العلو صعب الارتقاء وقد استدار سورها بجميع الجبل ويسمى تاقربست وأعلى هذا الجبل متصل ببسيط من الأرض**»، المصدر السابق، مج 01، ص 255. صاحب الاستبصار: «...**وهي في جبل عظيم، وهي حصينة منيعة لا تمكن بقتال**»، المصدر السابق، ص167. الحموي: «**قلعة بني حماد مدينة متوسطة بين أكم وأقران لها قلعة عظيمة على قلة جبل يسمى تاقربوست**»، المصدر السابق، مج 04، ص 390. وهو ما يؤكد على المنعة الطبيعية القصوى للجهة الشمالية لموقع القلعة الحمادية.

[2] ROBERT (M.A), Ruines Berberes Hammadites La Kalaa Et Tihmamine, Receuil Des Notices Et Memoires De La Societe Archéologique Du Departement De Costantine, 7eme Volume De La Quatrieme Serie - Trente-Septieme Volume-, 1903, Imprimerie D Brahim 2 Rue Du Palais 2, Constantine, 1903, pp 218-219.
DE BEYLI (Général. L), Kalaa des beni-Hammad une capitale berbère de l'Afrique du nord au XI siècle, Ernest Leroux Editeur, Paris-France, 1919, p 19.
BOUROUIBA (Rachid), Rapport préliminaire sur la campagne de fouilles de septembre 1964 à la Kalaa des beni hammad, Bulletin d'Archéologie Algérienne, Tome I (1962–1965) édition E DE BOCCARD, Paris-France, 1967, p 243.

[3] الحموي، المصدر السابق، مج 04، ص 390.
GOLVIN (Lucien), Fouilles Archéologique à La Qal'a des Benu Hammàd, Comptes rendus des séances de l'académie des inscriptions et belles-lettres, 106e année, N 02, Paris-France, 1962, p 391.

7. العاصمة البحرية الحمادية: بجاية الناصرية.

امتعض المنصور (الناصر بن علناس) بعد أن «نزلت عليه جيوش العرب وضيقوا [عليه] ببلاده، فكان يصانعهم حتى ضاق ضرعا بهم، وكان لا يقدر على التصرف في بلاده، فطلب موضعا يبني فيه مدينة لا يلحقه فيها العرب، فدُل على موضع بجاية... فبناها المنصور، وسماها المنصورية، وانتقل ملكهم من القلعة إلى بجاية، واتخذها دار مملكتهم وبينها وبين قلعة حماد مسيرة أربعة أيام ...فلم يكن للعرب إليها سبيل، ولا كان يدخل من العرب إلا من يبعث إليه الملك لمصانعه على بلاد القلعة وغيرها؛ فيدخلها أفراد وفرسان دون عسكر» [1].

توسُّط بجاية للساحل الجنوبي لحوض البحر المتوسط جعلها الموقع الهدف لكل القوى التي سعت لبسط سيطرتها على الساحل الشمالي للمتوسط منذ القِدم[2]*، إضافة إلى جملة من الخصائص الدفاعية الطبيعية التي جعلت منها حرزا منيعا في وجه الغارات البرية والبحرية، إذ يتبين لنا من خلال الخريطة الطبوغرافية (رقم03) وأوصاف الدراسات الغربية على أنه خليج بحري يمتد بين (Cap Cavallo) شرقا لغاية (Cap Carbon) غربا، تُحيط به المياه من الشمال (خلف جبال جرجرة) والشرق والجنوب ما جعله ملاذا للمراكب والسفن الفارة، لدرجة أن (ماسيلو Masselot) و(فاليريون Valerian) يعتبرانه كموقع استراتيجي عسكري أكثر منه حضاري، انطلاقا من التحليل الطبوغرافي الذي يبين استحالة التوسع عدا من الجهة الجنوبية الغربية، إذ تُطوقه الجبال التي تشكل حزاما دفاعيا من جل جهاته؛ فيستند في جهة الشمال على جبل غورايا (أمسيون) الذي ينتمي جيولوجيا لسلسلة جبال جرجرة والمتدرج من الغرب إلى الشرق نحو شاطئ البحر، والذي تبلغ ذروة ارتفاعه 672م، منتهيا بثلاثة رؤوس من الشمال إلى الجنوب الشرقي: رأس كاربون (رأس المثقوب)، الرأس الأسود (رأس بوحاي)، ورأس بواق (رأس سيدي المليح)، بينما ينتهي الجنوب بانحدار نحو السهل المضفي للبحر بقدمين: ربوة موسى وربوة بريجة حيث ينخفض الارتفاع تدريجيا، ليمر بينهما وادي أيزاز، وبأقل

---

[1] صاحب الاستبصار، المصدر السابق، ص ص 129-130.

* ناقش العديد من أقطاب المدرسة الغربية ممن اهتموا بمدينة بجاية مسألة أصولها، إذ يقول (فيرو Féroud) أن للمدينة أصولا تعود إلى أيام اتخاذها كميناء فينيقي (مركز تجاري بحري Emporioe/Comptoir commercial)، لينشئ بعدها الامبراطور (أوغست August 27 ق.م) المستوطنة الرومانية (سالدي/صالداي- Saldae/Saladai) حسبما أثبتته الدراسات الأثرية، لتخضع بعد ذلك لسلطة الوندال بقيادة "جنسريق" الذي اجتاح الشمال الإفريقي، ثم خلفهم البيزنطيون أيام سطوتهم على المجال نفسه، إلا أن (ماسيلو Masselot) ناقش مسألة أهمية (Saldae) مؤكدا في الوقت نفسه بأنه لم يتطرق أحد إلى كونها عاصمة زمن احتلال الوندال مع نفيه لفكرة اتخاذهم لها كذلك، كونهم مرّوا عبرها نحو (بونة Hypo-Regius/Bone) وصولا إلى (قرطاج Carthage) عاصمتهم الفعلية؛ وأشار (فيرو Féroud) إلى كون Gramaye المؤرخ الوحيد الذي ذكر بأن (Bougie) كانت عاصمة جنود "جنسريق"، وتبعه عديدون في طرحه أمثال: Davity و Dapper و Delacroix ...مع أنه أقر بالتحفظ على هذه المعلومة بناءً على عدم تطرق أهم مؤرخي الفترة الوندالية من أمثال Marcus و Yanoski لهذه المعطيات بتاتا، كما أن أقدمية هذه الوقائع دُعِّمت بمصادر عربية في الفترة الوسيطة، إذ ذكر "الحموي" أنها « على ساحل البحر بين إفريقية والمغرب...كانت قديما ميناء فقط ثم بُنيت المدينة»، وأورد "صاحب الاستبصار" أنها كانت: « مرسى، ويقال إنه كانت فيه آثار قديمة وإنها كانت مدينة فيما سلف ». للاستزادة حول الموضوع يُنظر:

MASSELOT (J), Ville et rade de Bougie province de Constantine-Algérie-, Imprimerie et librairie F Biziou, Bougie-Algérie, 1869, pp 05-06.

FERAUD (L. CH), Histoire des villes de la province de Constantine -BOUGIE-, L Arnolet Librairie – éditeur, rue du palais, Constantine- Algérie, 1869, pp 44-45, 48-50

الحموي، المصدر السابق، مج 01، ص 339. صاحب الاستبصار، المصدر السابق، ص 129.

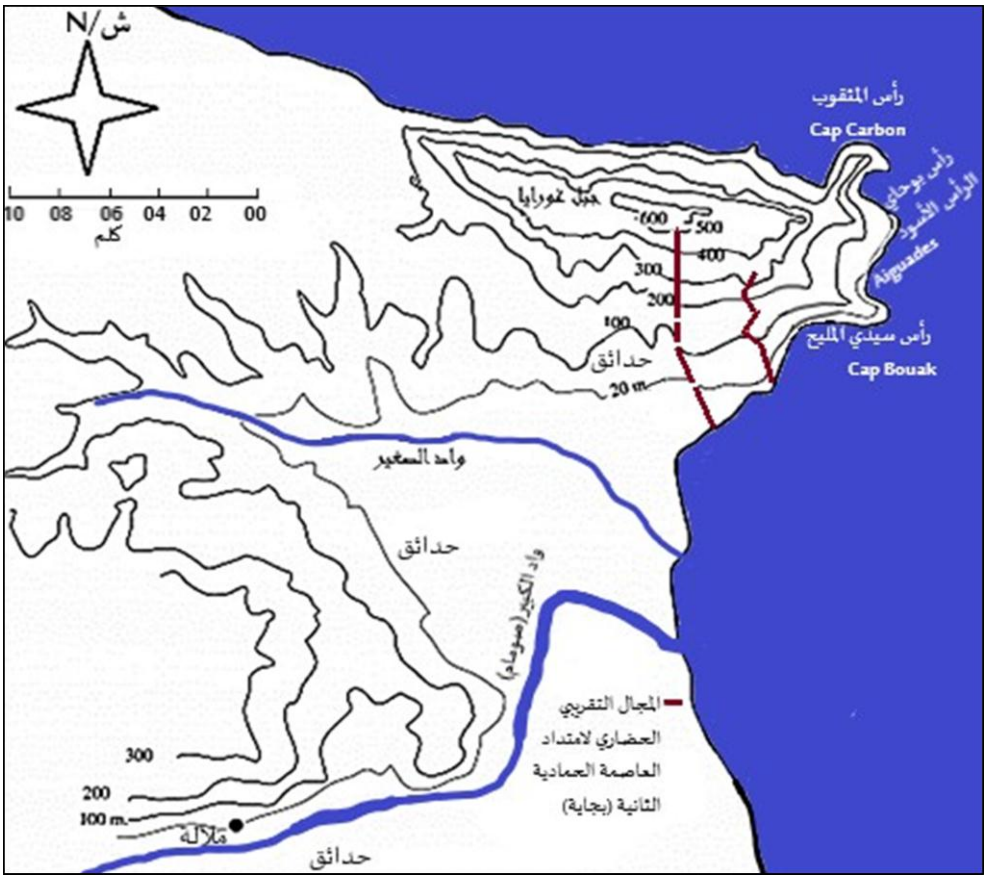

الخريطة رقم–03 – طبوغرافيا موقع بجاية (بتصرف الباحث).

المصدر: Valerian (Dominique), Op-Cit, p 106.

ارتفاع تعمل الربوتان على حصر المدينة بين المرتفعات التي تسهل تحصـــينها، إضـــافة إلى وادي الصـومام (الكبـير) الـذي يـؤمن خنـــدقاً طبيعيـــا علـــى امتـــداد الجنوب الغربي ما يلخص بصورة كليـة التطويـق الطبيعـي الـذي يتميز به الموقع[1].

بيّنـت المصـادر الجغرافيـة قوة المنعة الطبيعية للموقع فذكر "الادريسـي" أنهـا «على البحـر لكنها على جرف حجر ولها من جهـــة الشـــمال جبـــل يســـمى مسيون وهـو جبـل سـامي العلـو صـعب المرتقـى ... وعلـى بعـد ميـل منهـا نهـر يأتيهـا مـن جهـة المغرب من نحو جبل جرجرة وهو نهر عظيم يجاز عند فم البحر بالمراكب وكلما بعد عن البحر كان ماؤه قليلا...ومدينة بجاية قطب لكثير من البلاد ...»[2] ، كمـا يُفصـل صـاحب "الاستبصـار" في وصـفها بقولـه بأنهـا «...مدينـة عظيمـة مـا بـين جبـال شـامخة قـد أحاطت بها، والبحر منها في ثلاث جهات: في الشرق والغرب [قد يكون الوصف انطلاقا من أحد الرؤوس الصخرية الواقعة في الشمال الشرقي] والجنوب... كما تمتد المدينة عرضا على خاصرة الجبل، وتكاد أن تكون كلها مؤلفة من جبال شاهقة ووعرة ذات غابات وعيون كثيرة وبجاية معلقة من جبل ...وهذا الجبل مسيون...جبل عظيم عال قد ذهب في الجو، وقد خرج في البحر... وعليها سور عظيم والبحر يضرب فيه... »[3]. وأضاف "العبدري" بأنها: «...حصينة منيعة شهيرة برية بحرية سنية سرية...موضوعة في أسفل سفح جبل وعر مقطوعة بنهر وبحر، مشرفة عليهما أشراف الطليعة، متحصنة بها منيعة، فلا مطمع فيها لمحارب ولا متسع فيها لطاعن وضارب» [4](أنظر الخريطة رقم: 03).

تُعد هذه المعطيات الطبيعية بمثابة تأكيد على الميزة العسكرية للموقع الذي استمر استغلاله بعد الحماديين؛ ما يعني القيمة الاستراتيجية العظيمة التي يحظى بها، خصوصا في ظل الصراعات التي شهدها المغرب الأوسط بين الأطماع البحرية المسيحية من

[1] MASSELOT, Op-Cit, pp 13-16. Féraud, Op-Cit, p15.
VALERIAN (Dominique), Bougie Port Maghrébin 1067-1510, Ecole française De Rome, Rome, 2006, pp 103-107 .

[2] الادريسي، المصدر السابق، مج 01، ص 260.

[3] صاحب الاستبصار، المصدر السابق، ص ص 129–130.

[4] العبدري (محمد البلنسي) (ت 720هـ)، الرحلة المغربية، تقديم: سعد بوفلاقة، منشورات بونة، الجزائر، 2007م، ص 49.

جهة والانتشار الهلالي من جهة أخرى، إضافة إلى حركة التصحيح العقدية التي تزعمها "يوسف بن تاشفين"، ليخضع فيما بعد لحكم الحفصيين ورثة دولة "عبد المؤمن بن علي".

8. عاصمة دولة بني عبد الواد: تلمسان.

ترتّب عن سقوط دولة المصامدة الموحديين مطلع القرن (07هـ/13م) اقتسام تركِتها التي اتخذ "يغمراسن بن زيان" من مدينة تلمسان مقرا لحكم الجزء الأوسط منها بداية من سنة 633هـ/1236م، غير أن الحديث عن الأهمية الطبيعية لموقع عاصمته يؤكده تاريخ الموقع الحافل بالتجمعات البشرية الحضارية[1]*، وتبعد آخر عواصم المغرب الأوسط « مسيرة خمسة وعشرين يوما...من تاهرت» [2]«وعن فاس بتسع مراحل...وهي على رصيف للداخل والخارج منها لابد منها والاجتياز بها على كل حالة»[3] وهي على :«...سبعة فراسخ من البحر المتوسط في جهة الجنوب» [4]، ويرتفع موقعها عن البحر بنحو (830م)، وتبعد عنه بحوالي60 ميلا[5] وهي « مدينة في سفح جبل...لها ...أنهار عليها طواحين، هو نهر سطفسيف»،[6]حتى شبهها "يحي ابن خلدون" بأنها « « اقتعدت بسفح جبل ودون رأسه بسيط أطول من شرق إلى غرب عروسا فوق منصة»[7].

---

* أكّدت الدراسات الأثرية الغربية على أن تلمسان أُسست على أنقاض المعسكر – معسكر دائم Castra Stativa- الروماني القديم – البساتين Pomarium ou Pomaria = (latin) Vergers بوماريا– بناءا على إثباتات استُمِدت من ترجمة نقائش وُجدت بالموقع، والحقيقة أن المصادر العربية تطرّقت هي الأخرى للأمر؛ إذ قال عنها "البكري ": « وفيها للأول آثار قديمة، وبها بقية من النصارى إلى وقتنا هذا، ولهم بها كنيسة معمورة، وأكثر ما يوجد الركائز في تلك الآثار...وهذه المدينة تلمسان قاعدة المغرب الأوسط» «وأم بلاد زناتة اختطّها بنو يفرن» ولما وقعت بيد إدريس الأكبر عام (174هـ) ملكها واختط مسجدها، وحين بويع ابنه أسرع إليها (عام 199هـ) وأقام بها ثلاث سنوات واستبحرت أغادير عمرانا، ثم « نهض يوسف بن تاشفين سنة ثلاث وسبعين واربعمائة... ثم افتتح مدينة تلمسان ...فصارت ثغرا لملكه، ونزل بعساكره واختط مدينة تاكرارت (تاجرارت–تافرزت) بمكان محلته، وهو اسم المحلة بلغة البربر»، إلا أن أيام عزّها كان زمن ملوك بني زيّان الذين انتزعوها من أملاك دولة خلفاء "عبد المؤمن بن علي" وجعلوا منها عاصمة للمغرب الأوسط، وغدت همزة الوصل بين ممالك السودان الغربي بالصحراء والمنطقة التلية البحرية على حد وصف (بروسلار Brosselard) .

يُنظر: البكري، المصدر السابق، ص 746. ابن خلدون، المصدر السابق، ج 06، ص 247. /ج 07، ص 102.

BERGES (Abbé Jean Joseph Léandre), Tlemcen ancienne capitale du royaume de ce nom : sa topographie, son histoire, description de ses principaux monuments, anecdotes, légendes et récits divers, souvenirs d'un voyage à Tlemcen, Benjamin Duprat librairie de l'institut et de la bibliothèque impériale, Paris-France, 1859, p 111.

CANAL (J), Contribution a L'histoire De Tlemcen : Pomaria Tlemcen Sous La Domination Romaine, Bulletin De La Societe de Geographie et D'archelogie de la Province d'Oran, Imprimerie Typographique Et Lithographique L Fouque, Oran-Algerie, Tome 10, Année 1890, p 272.

BROSSELARD (Charles), Tlemcen et Tombouctou, imprimerie de A. Bourget, Paris-France, 1861, pp 09, 16-21.

[2]ابن خُرْداذْبة، المصدر السابق، ص 88. ابن الفقيه، المصدر السابق، ص 133.

[3] الإدريسي، المصدر السابق، ص 246.

[4]كربخال (مارمول)، إفريقيا، ترجمة: محمد حجي وآخرون، ج 02، دار نشر المعرفة، الرباط–المملكة المغربية، 1988–1989، ص 298.

[5]شاوش (الحاج محمد بن رمضان)، باقة السوسان في التعريف بحاضرة تلمسان عاصمة بني زيان، ج 01، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 2011، ص 27.

[6]البكري، المصدر السابق، ص 746.

[7]ابن خلدون (أبي زكرياء يحي ابن أبي بكر محمد بن محمد بن محمد بن الحسن) (توفي في 780هـ)، بغية الرواد في ذكر الملوك من بني عبد الواد، مج 01، مطبعة مطبعة بيير فونتانا الشرقية، الجزائر، 1321هـ/1903م، ص 9.

والأصل أن موقع المدينة هو ائتلاف « مدينتان متجاورتان مسورتان بينهما رمية حجر، إحداهما قديمة والأخرى حديثة، والحديثة اختطها الملثمون ملوك المغرب واسمها تافرزت (تاقرارت) فيها يسكن الجند وأصحاب السلطان وأصناف من الناس واسم القديمة أقادير يسكنها الرعية» [1].

أضفى ارتفاع موقع تلمسان وتوسطه للجبال والهضاب المشرفة على السهول التي تخترقها الأنهار والوديان حصانة طبيعية بامتياز تأكدت عبر صمودها رغم المعارك المستمرة، إذ تُحيط بها الجبال والمرتفعات التي وفرت الحماية لجبهاتها المختلفة، إذ تنبسط على السفح الشمالي لجبل الصخرتين (بني ورنيد–جبل لالة ستي) والذي يبلغ أعلى ارتفاع به 1306متر، إضافة إلى جبال تنوشفي التي تؤمن الظهر الجنوبي، والتي يبلغ اعلى ارتفاع بها 1483مترا،[2] كما يقع أيضا « في الجنوب ... قلعة ابن الجاهل ...ويتصل بها جبل تاربي (تاورناية) وهو ما يليه جبال معمورة (مصمودة)...وفي الشمال...جبل يسمى جبل البغل (الفضل) ينبعث من أسفله نهر سطفسيف...ولتلمسان فحص طوله خمسة وعشرون ميلا»[3] يترامى في الجهة الشمالية منها، يُعرف بسهل الحناية الذي يتخلله يتخلله وادَي التافنة والصفصاف لغاية اتصاله بسهل مغنية وجبال فلاوسن جهة الغرب، في حين يتضح جليا الفصل الطبيعي الذي وفّره وادي متشكانة من جهة الجنوب الشرقي، وهو الذي يعلوه مرتفع العباد شرقا وسلسلة جبال بن إسماعيل (بن أصميل) المسماة بجبال الأثنا عشر قمة أو رسولا، لتُكمل سلسلة جبال رأس عصفور تطويق الجهة الغربية بأقصى ارتفاع يبلغ 1566متر، مع أن ذلك لم يمنع المرينيين من إنشاء قاعدة المنصورة في الطرف الجنوبي الغربي[4].

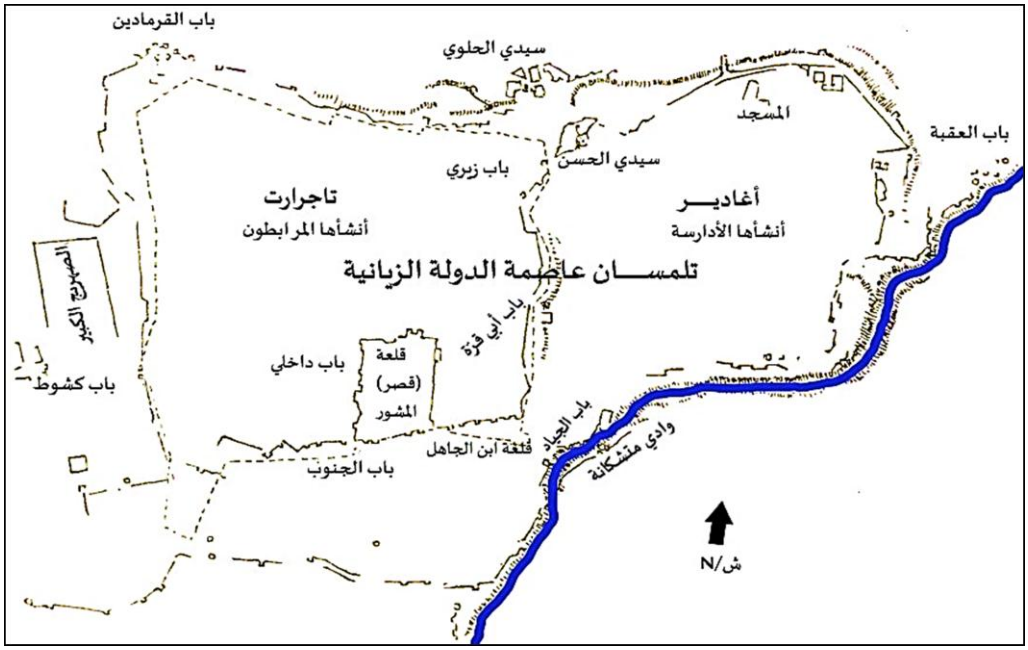

المخطط رقم–02 – مخطط توضيحي لموقع تلمسان عاصمة بني زيان (بتصرف الباحث)

المصدر: MARÇIAS (W et G) , Op-Cit, p 114

فضلا عن كل الخصائص الطبيعية التي ساعدت في تأمين المدينة، يُضاف إليها كرونولوجيا التطور الحضري الذي شهدته كتأكيد على تميز الموقع وإقرار العديد من مؤسسي المستقرات البشرية به على أنه يمثّل موقعا يضمن استمرار العمران، ولهذا

[1] ياقوت الحموي، مج 02، المصدر السابق، ص 44.

[2] ابن خلدون (**يحيى** ...)، المصدر السابق، ص 112. شاوش (الحاج)، المرجع السابق، ص 29.
MARÇIAS (William et Géorges)، Les Monuments arabes de Tlemcen, ancienne librairie thorin et fils, Paris-France, 1903, p 07.

[3] يُنظر: البكري، المصدر السابق، ص 746. صاحب الاستبصار، المصدر السابق، ص 176. الحميري (محمد بن عبد المنعم) (ق 08هـ/14م)، الروض المعطار في خبر الأقطار، تحقيق: عباس إحسان، مكتبة لبنان، بيروت – لبنان، 1984م، ص 135.

[4] شاوش (الحاج محمد بن رمضان)، المرجع السابق، ص 29. MARÇIAS (William et Géorges), Op-Cit, p 07.

فإن فهم مميزاته يستدعي نظرة تحليلية تتأتى بداية باستراتيجية اختيار موقع الحصن الروماني "بوماريا POMARIA" المؤمِّن للطريق الشمالية منها، وهو نفسه الموقع الذي أكد الأخوان (مارسي Marçais) بأن "أغادير الإدريسية" أُنشأت فوق أنقاضه استدلالا بالشواهد الأثرية التي أُعيد استعمال بعضها في جامعها.

في حين مثلت تاجرارت المرابطية التطور العمراني الذي شهدته الحاضرة مع زيادة أهميتها، غير أن ملوك بني عبد الواد جعلوا منها أم الحواضر في عصرهم في شتى المجالات، كل هذا جعل منها مطمعا ومبتغىً للقوى المجاورة والحديث هنا يخص دولتي بني مرين في المغرب الأقصى ودولة بني حفص في المغرب الأدنى، مع أنها مثلت دوما مقصدا مرغوب السيطرة عليه وما كان من الموحدين الذين كانوا السّباقين في تخريبها لأحسن دليل، حيث أورد "ابن خلدون" ذلك حين قال: «ولما غلب عبد المؤمن لمتونة وقتل تاشفين بن علي بوهران خرّبها وخرّب تلمسان بعد أن قتل الموحدون عامة أهلها، وذلك أعوام أربعين من المائة السادسة، ثم راجع رأيه فيها وندب الناس إلى عمرانها، وجمع الأيدي على رم ما تثلّم من أسوارها...»[1]، وكان أن تبعهم من خَلفهم في نهجهم من حيث أطماعهم فيها لدرجة أن تلمسان مثلت الهدف الرئيس لوجهاتهم التوسعية، وعليها مارسوا كل السبل لدخولها أو تدميرها ما جرّها إلى حالة مد وجزر عبر الولاء والخضوع بينهما.

غير أن التاريخ حفظ صمود موقعها ودفاعاتها رغم الحصار الرهيب الذي ضربته جيوش بني مرين في أكثر من مرة، وما المنصورة الموازية من الجنوب–الغربي إلا خير شاهد على جدية تلك الحصارات التي دام إحداها أزيد من ثماني سنوات، وهو في نفس الوقت تأكيد على دور الدفاعات واستراتيجية الموقع التي ضمنت تغطية مميزة ساهمت في حمايتها من الاجتياح المباشر عبر تصعيب تنفيذ العديد من التكتيكات الحربية التي كان من شأنها ضمان إخضاع المدينة، خصوصا مع القوة الحربية التي كانت تُعرف بها طلائع بني مرين.

9. خاتمة.

خلُصنا من خلال مقالنا هذا إلى نتيجة مفادها الجدية التي اتّسم بها مؤسسو عواصم المغرب الأوسط في مسألة التخطيط الحربي، وحرصهم على مراعاة شرط التحصين الطبيعي الذي يتضح في كل العواصم مع تحييد العاصمة الرستمية الثانية التي كانت الصحراء موطناً لها، غير أنها كانت قد حظِيت بما يُعوضها لأن القصد من الاستيطان بها كان عن دراية لا اعتباطا وجهلا.

لا شك أن مردّ حسن التموقع الذي ميّز عواصم المغرب الأوسط يعود للالتزام بمقاصد الشريعة الإسلامية الصارمة في هذا الشأن، إذ أن حياة المسلم لا اسْتسهال في أمرها، ناهيك عن حرص مؤسسي عواصم المغرب الأوسط على تثبيت كيانهم وتأبيد وجودهم، خاصة وأن ذلك اقترن بالحالة السياسية المتقلبة السائدة آنذاك، لأن قيام تلك العواصم عنى بالضرورة ظهور كيانات سياسية جديدة في خارطة المغرب الأوسط، وهو ما تُرجم بالقطيعة وخلع الطاعة والولاء، ولذلك كان كل الحرص على تأمين حواضرهم القيادية التي كانوا على علم بأنها ستشهد وقائع وحصارات عنيفة، ما جعلهم يختارون أمنع المواضع التي لا تُوصل إلا عبر أعسر المسالك لتهيئة الجنود وإعداد العدة والخطط الحربية قبل وصول الأعداء.

تميز موقع تيهرت بالتموقع الجيد مع ضمان كل الشروط التي يتنماها أي قائد عسكري قبل إعطاء شارة انطلاق المعركة، وذلك من خلال الاعتلاء بجبل جزول والاحتماء بالخندق الطبيعي الذي ضمنته مسالك عيون "تاتش" و"واد مينة"، بينما صنعت سدراتة الاستثناء باعتبارها مدينة توسطت الشطوط والسباخ والهضاب الصخرية الصحراوية، ما جعل مؤسسيها في سعي لتعويض

[1] ابن خلدون، المصدر السابق، ج 07، ص 104.

تلك المعطيات الطبيعية الصعبة، وهي التي شكلت بامتياز موقعا شهد أحد أروع الأنماط المعمارية وسط الرمال، أين يمثل الماء المرجع الأول في تقرير مصير الاستقرار، وقد خلصنا إلى أن ساكنيها ما كانوا ليستندوا عليها في سبيل الدفاع عن أنفسهم وأموالهم دون نقل ميدان المعارك إلى الجبال التي كانت تُطوقها شرقا–جنوبا –غربا، إضافة إلى العمل بمبدأ النُّصرة والتحالف مع من كان يجاورهم مذهبيا وجغرافيا، خصوصا وأنهم كانوا يمثلون امتداد الاباضية ورأسها آنذاك.

عهِد الصنهاجيون في اختيار مواقع عواصمهم إلى النهج العسكري الصريح؛ بدءاً بأشير التي تطورت عبر ثلاث مواقع – منزه بنت السلطان– ياشير– بنية–، والتي تميزت في تمركزها وتموقعها الطبيعي بالصبغة العسكرية الصارخة، فهم من اتخذ من "جبل الكاف لخضر" و"جبل تسمسايل" سندا داعما لمواقعهم، ولا شك أن "زيري بن مناد" قد استبق مستقبل عاصمته انطلاقا من طموحاته وتطلعاته من قيادة المغرب الأوسط، فكان مدركاً لطموحات الزناتيين المتاخمين له غرباً، إضافة إلى توقعه لما سيلقاه بعد رفعه لراية الفاطميين والسير بها على مجالات المغربين الأوسط والأدنى، في حين كانت فطنة "حمّاد بن بلكين" حادة بأن استغل هجومات الزناتيين وإعلانه لقيام دولته التي مثلت "القلعة" أكثر من مجرد عاصمة لها، بل وكانت رمزا أبدى بها نهجه الحربي من خلال اعتلائها لقمة "تاقربوست الصخرية" واشرافها على "واد فرج" شرقا، وهو ما جعل منها مدينة وقلعة عسكرية في آن واحد، غير أن "الناصر بن علناس" لم يحتمل ضربات الهلاليين الذين انتشروا بالمغرب الإسلامي عقب قرار الوزير الفاطمي "اليازوري" في شأن القطيعة المذهبية، فرأى "الناصر" تأسيس العاصمة الحمادية الثانية بجاية، والتي مثلت الاستثناء هي الأخرى بأن كانت محصورة بين "جبل غورايا" الذي كانت معلقة فوقه، وبين وادَي "الصغير" والكبير "الصومام"، وهو ما أمّن لها الحماية الطبيعية براً، أما من جهة البحر فكانت مسؤولية الحماديين البدء بالمعارك البحرية الهجومية من الساحل قبل الانتقال إلى مرحلة الحماية من الأسوار المشرفة على البحر.

كان مؤسس تلمسان الزيانية "يغمراسن بن زيان " مدركا جيدا لسياسات خلفاء الموحدين من الحفصيين والمرينيين التوسعية، فهم كانوا يضعون "تلمسان" على رأس غاياتهم، وعملوا على ألا يدعوه يهنأ بعاصمته التي مثّلت المقصد والمطمع لما لموقعها من تميُّز طبيعي ودفاعي، فكانت أن اعتلت "جبل الصخرتين" الذي يحده "واد متشكانة" من الجنوب–الشرقي، ما جعلها عالية مؤمَّنة، فأقل ما توصف به هي أنها أقوى العواصم المقاومة بالمغرب الأوسط نظير الاستماتة التي شهد لها الأعداء قبل الأهالي.

قائمة المراجع

أولا: المؤلفات باللغة العربية

01- المصادر:

– ابن أبي الربيع (شهاب الدين أحمد بن محمد) (ت 272هـ/ 885م !)، سلوك المالك في تدبير الممالك، تحقيق: عارف أحمد عبد الغني، دار كنان للطباعة والنشر والتوزيع، دمشق–سورية، 1996م.

– ابن أبي زرع الفاسي (علي بن عبد الله) (عاش خلال القرن 08هـ/14م)، الذخيرة السنية في تاريخ الدولة المرينية، اعتناء ونشر: محمد بن أبي شنب، مطبعة جول كربونل، الجزائر، 1339هـ/1920م.

– ابن الأزرق (أبي عبد الله) (ت 896هـ/1491م)، بدائع السلك في طبائع الملك، ج 02، تحقيق: علي سامي النشار، دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة، ط 01، القاهرة، 1429هـ/2008م.

- ابن الفقيه (أبو بكر بن أحمد الهمذاني) (ت نحو 340هـ/951م)، مختصر كتاب البلدان، دار إحياء التراث العربي، بيروت-لبنان، 1408هـ/1988م.

- ابن الفقيه (أبي عبد الله أحمد بن محمد بن إسحاق الهمذاني) (عاش في القرن03هـ)، البلدان، تحقيق: يوسف الهادي، ط 01، عالم الكتب، 1416هـ/1996م.

- ابن خُرْداذْبة (أبي القاسم عبيد الله) (ق 03هـ/09م)، المسالك والممالك، مطبعة بريل، ليدن-لبنان، 1889م.

- ابن خلدون (أبي زكرياء يحي ابن أبي بكر محمد بن محمد بن محمد بن الحسن) (توفي في 780هـ)، بغية الرواد في ذكر الملوك من بني عبد الواد، مج 01، مطبعة بيير فونتانا الشرقية، الجزائر، 1321هـ/1903م.

- ابن خلدون (عبد الرحمان بن محمد الحضرمي) (ق 8-9هـ)، المقدمة، المطبعة الأدبية، ط 03، بيروت-لبنان، 1900م.

- ابن خلدون (عبد الرحمان) (ق 8-9هـ)، تاريخ ابن خلدون المسمى ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر، ج 06، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت-لبنان، 1421هـ-2000م، ص 187-188.

- ابن قتيبة (أبي محمد عبد الله بن مسلم الدينوري) (ت 276هـ)، عيون الأخبار، ج 02، مطبعة دار الكتب المصرية، القاهرة، 1996م.

- أبي زكرياء (يحي بن أبي بكر الوارجلاني) (ت 471هـ)، سير الأئمة وأخبارهم، تحقيق وتعليق: إسماعيل العربي، الكتبة الوطنية، الجزائر، 1399هـ/1979م.

- الإدريسي (أبي عبد الله محمد بن محمد بن عبد الله بن إدريس الحمودي الحسني) (ت 560 هـ/1164م)، نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، مج 01، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة-مصر، 1422هـ/2002م.

- الأصطخري (أبو إسحاق إبراهيم بن محمد الفارسي المعروف بالكرخي) (ق 08هـ/10م)، مسالك الممالك وهو معول عن كتب صور الأقاليم للشيخ أبي يزيد أحمد بن سهل البلخي، طبع بمدينة ليدن المحروسة، بمطبعة بريل، 1870، ص 46.

- البكري (أبي عبيد الله) (ق 05هـ/11م)، المسالك والممالك، حققه وقدم له: أدريان فان ليوفن وأندري فيري، ج 02، دار الغرب الإسلامي، لبنان، 1992م.

- الحسن الوزان، وصف إفريقيا، ج 02، تر: محمد حجي ومحمد الأخضر، ط 02، دار الغرب الإسلامي، بيروت-لبنان، 1983.

- الحموي (شهاب الدين أبي عبد الله ياقوت بن عبد الله) (ق 06-07هـ)، معجم البلدان، مج 01، دار صادر، بيروت-لبنان، 1397هـ/1977م.

- الحميري (محمد بن عبد المنعم) (ق 08هـ/14م)، الروض المعطار في خبر الأقطار، تحقيق: عباس إحسان، مكتبة لبنان، بيروت - لبنان، 1984م.

- الدرجيني (أبي العباس أحمد بن سعيد) (توفي حوالي 670هـ)، طبقات المشايخ بالمغرب، ج 01، تحقيق: إبراهيم طلاي، 1394هـ/1974م.

- العبدري (محمد البلنسي) (ت 720هـ)، الرحلة المغربية، تقديم: سعد بوفلاقة، منشورات بونة، الجزائر، 1428هـ/2007م.

- الماوردي (أبو الحسن علي بن محمد بن حبيب) (ت 450هـ/ 1058م)، تسهيل النظر وتعجيل الظفر في أخلاق الملك وسياسة المِلك، تحقيق ودراسة: رضوان السيد، ط 02، مركز ابن الأزرق للدراسات التراث السياسي، بيروت-لبنان، 1432هـ/2012م.

- المقريزي (تقي الدين أحمد بن علي) (ت 845هـ/1442م)، اتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفا، تحقيق: جمال الدين الشيال، مطابع الأهرام التجارية، قليوب-القاهرة-مصر، ط 02، 1416هـ/1996م.

- النويري (شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب) (توفي في 733هـ)، نهاية الأرب في فنون الأدب، الجزء الرابع والعشرون (24)، تحقيق: عبد المجيد ترحيني، ط 01، دار الكتب العلمية، بيروت-لبنان، 1424هـ/2004م.

- اليعقوبي (أحمد بن أبي يعقوب إسحاق بن جعفر بن وهب بن واضح) (ت 284هـ)، البلدان، دار الكتب العلمية، بيروت-لبنان، د ت ن.

- مجهول (يُنسب لابن عبد ربه الحفيد) (ق 06 هـ/12م)، الاستبصار في عجائب الأمصار، نشر وتعليق سعد زغلول عبد الحميد، دار الشؤون الثقافية والعامة للنشر، بغداد-العراق، د ت ن.

أبي داود (سليمان بن الأشعث الأزدي السجستاني) (202هـ-275هـ)، سنن أبي داود، الجزء الخامس، كتاب البيوع، الباب:(62) باب في منع الماء، الحديث رقم 3477، حققه وضبط نصه وخرّج أحاديثه وعلّق عليه: شعيب الأرنؤوط ومحمد كامل قروبللي، (طبعة خاصة)، دار الرسالة العالمية، دمشق-سوريا، 1430هـ/2009م.

القزويني (زكرياء بن محمد بن محمود) (ت 682هـ)، آثار البلاد وأخبار العباد، دار صادر، بيروت، د ت ن.

-كربخال (مارمول)، إفريقيا، ترجمة: محمد حجي وآخرون، ج 02، دار نشر المعرفة، الرباط-المملكة المغربية، 1988-1989.

- (لجنة من العلماء المحققين والفقهاء المدققين)، مجلة الأحكام العدلية (تحتوي على القوانين الشرعية والأحكام العدلية المطابقة للكتب الفقهية بعد أن وقعت لدى الباب العالي موقع الاستحسان تعلقت الإرادة السنية بأن تكون دستورا للعمل بها)، المادة (القاعدة) 30، المطبعة الأدبية، بيروت-لبنان، 1302هـ.

02- القواميس والموسوعات:

- ابن منظور (أبي الفضل جمال الدين محمد بن مكرم)، لسان العرب، دار صادر، بيروت، د ت ن.

- الفراهيدي (أبي عبد الرحمن الخليل بن أحمد) (100-175هـ/ 718-786م)، كتاب العين، تحقيق مهدي المخزومي وإبراهيم السامرائي، الجزء السابع، دار ومكتبة الهلال للنشر، مصر، د ت ن.

- الفيروزابادي (مجد الدين محمد بن يعقوب الشيرازي) (عاش في الفترة ما بين 729هـ-817هـ)، القاموس المحيط، ج 04، نسخة مصورة عن الطبعة الثالثة للمطبعة الأميرية، 1301هـ، الهيئة المصرية العامة للكتاب، مصر.، د ت ن.

03- الكتب:

ابن عاشور (محمد الطاهر)، مقاصد الشريعة الإسلامية، تقديم حاتم بوسمنة، دار الكتاب المصري، القاهرة-مصر، 2011م، ص 07.

أرشيبالد (ر. لويس)، القوى البحرية والتجارة في حوض المتوسط 500-1100م، ترجمة: أحمد محمد عيسى، مكتبة النهضة المصرية.

بحاز (إبراهيم بكير)، الدولة الرستمية 160-296هـ / 777-909م، جمعية التراث للنشر، ط 2، القرارة-الجزائر، 1414هـ/1993م.

شاوش (الحاج محمد بن رمضان)، باقة السوسان في التعريف بحاضرة تلمسان عاصمة بني زيان، ج 01، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 2011.

04- المقالات:

بويحياوي (عز الدين)، معطيات جديدة حول تاهرت تاقدمت، الملتقى الثاني للبحث الأثري والدراسات التاريخية، أدرار – 05/29 إلى 1994/06/02م، وزارة الاتصال والثقافة (مديرية التراث الثقافي والفنون التقليدية)، الجزائر، 1994م.

ثانيا: المؤلفات باللغة الأجنبية

01- الكتب:

AILLET (Cyrille), Le bassin de Ouargla : Foyer Ibadite et Carrefour du Sahara médiéval, Sedrata, Histoire Et Archéologie D'un Carrefour Du Sahara Médiéval, à La Lumière Des Archives Inédites De Marguerite Van Berchem, Collection Casa De Velázquez, Volume 161, Madrid- España, 2017.

BAUDENS (Lucien), Relation historique de l'expédition de Tagdempt, Germain-Baillière libraire- éditeur, Paris-France, 1841.

BERGES (Abbé Jean Joseph Léandre), Tlemcen ancienne capitale du royaume de ce nom : sa topographie, son histoire, description de ses principaux monuments, anecdotes, légendes et récits divers, souvenirs d'un voyage à Tlemcen, Benjamin Duprat librairie de l'institut et de la bibliothèque impériale, Paris-France, 1859.

BROSSELARD (Charles), Tlemcen et Tombouctou, imprimerie de A. Bourget, Paris-France, 1861.

CAPTAIN LENDY, (F.G.S/ F.L.S, C), Treatise on Fortification, printed and published by: W Mitchell Military Bookseller, London- England, 1862.

DE BEYLI (Général. L), Kalaa des beni-Hammad une capitale berbère de l'Afrique du nord au XI siècle, Ernest Leroux Editeur, Paris-France, 1919.

FERAUD (L. CH), Histoire des villes de la province de Constantine -BOUGIE-, L Arnolet Librairie – éditeur, rue du palais, Constantine- Algérie, 1869.

GIOVANNI (G), L'Urbanisme face aux Villes Anciennes, traduit de l'italien par : Mandosio (Jean-Marc) et Petita (Amélia) et Tandille (Claire), Edition Du Seuil (Traduction), France, Mai 1998.

GOLVIN (Lucien), le Maghrib centrale à l'époque des zirides, Paris, 1957.

GSELL (Stéphane), Atlas archéologique de l'Algérie, réimpression de l'édition Alger/Paris.

LARGEAU (Victor), le pays de Righa, Ouargla, Voyage à Rhadamès, Librairie Hachette et C^{ie}, Paris-France,1879.

LETHIELLEUX (Jean), Ouargla cité saharienne des origines au début du XX siècle, Paul Guenther, Paris-France,1983.

MARÇAIS (Géorges), les arabes en berbérie du XI au XIV siècle *(thèse pour l'obtention du doctorat des lettres)*, Ernest Leroux 28 rue Bonaparte, Paris-France, 1913.

MARÇIAS (William et Géorges), Les Monuments arabes de Tlemcen, ancienne librairie thorin et fils, Paris-France, 1903,

MASSELOT (J), Ville et rade de Bougie province de Constantine-Algérie-, Imprimerie et librairie F Biziou, Bougie-Algérie, 1869.

ROLLAND (Georges), Géologie du Sahara Algérien et Aperçu Géologique sur le Sahara de l'océan Atlantique à la Mer Rouge, Imprimerie Nationale, Paris-France, 1900.

VALERIAN (Dominique), Bougie Port Maghrébin 1067-1510, Ecole française De Rome, Rome, 2006.

02- الموسوعات والقواميس

COMITE D'OFFICIERS DE TOUTES ARMES, Nouveau Dictionnaire Militaire, Sous La Direction D'un : Officiers Supérieur, Librairie Militaire De L. Boudoin, Paris-France, 1892.

DE CHESNEL, Encyclopédie Militaire et Maritime, -dictionnaire des armées de terre et de mer-, 1ère partir, 3ème édition, Armand le chevalier éditeur, Paris-France, 1865.

03-المقالات

BOUROUIBA (Rachid), Rapport préliminaire sur la campagne de fouilles de septembre 1964 à la Kalaa des beni hammad, Bulletin d'Archéologie Algérienne, Tome I (1962–1965) édition E DE BOCCARD, Paris-France, 1967.

CADENAT (Pierre), Recherches à Tihert Tagdempt,1958-1959, Bulletin D'archéologie Algérienne, Tome VII, Fas II , 1977-1979 .

CANAL (J), Contribution a L'histoire De Tlemcen : Pomaria Tlemcen Sous La Domination Romaine, Bulletin De La Societe de Geographie et D'archelogie de la Province d'Oran, Imprimerie Typographique Et Lithographique L Fouque, Oran-Algerie, Tome 10, Année 1890.

CHABASSIERE (J) - **BERBRUGGER** (Louis Adrien), Le Kef Al-Akhdar et ses Ruines, Revue Africaine, Volume 13, A Jourdan Libraire-Éditeur, Alger, 1869.

GOLVIN (Lucien), Fouilles Archéologique à La Qal'a des Benu Hammàd, Comptes rendus des séances de l'académie des inscriptions et belles-lettres, 106^{e} année, N 02, Paris-France, 1962.

LEVEAU (Philippe), Ašir toponyme, Encyclopédie berbère, T VII, Edisud, la calade 13090, France, 1989

LEWICKI (Tadeusz), L'État nord-africain de Tahert et ses relations avec le soudan occidental à la fin du VIII^{e} et au IX^{e} siècle, Cahier d'études africaines, vol : 02, N 08, 1962.

MARÇAIS (Géorges), Lamare (A, Dessus), Recherches D'archéologie Musulmane (Aout-Septembre 1941), Revue Africaine Volume 90, A Jourdan Libraire-Éditeur, Alger, 1946.

MARÇAIS, Recherches Archéologique Musulmane, Revue Africaine, Volume 63, A Jourdan Libraire, Alger, 1922.

ROBERT (M.A), Ruines Berberes Hammadites -La Kalaa Et Tihmamine-, Receuil Des Notices Et Memoires De La Societe Archéologique Du Departement De Costantine, 7eme Volume De La Quatrieme Serie - Trente-Septieme Volume-, 1903, Imprimerie D Brahim 2 Rue Du Palais 2, Constantine, 1903.

RODET (Capitaine), Les ruines D'Achir, Revue Africaine, Volume 52 A Jourdan Libraire-Éditeur, Alger, 1908.

TARRY (Harold), Excursion Archéologique Dans La Valée De L'oued Mya, Revue D'ethnographie, Tome II, Publié sous la direction de M Le DR Hamy, Ernest Leroux Editeur -Librairie de La Société Asiatique, Paris-France, 1883.

TARRY (Harold), Les Villes Berbères De La Vallée De L'oued Mya, Revue D'ethnographie, Tome III, Publié sous la direction de M Le DR Hamy, Ernest Leroux Editeur -Librairie de La Société Asiatique, Paris-France, 1885.

VAN BERCHEM (M), Sedrata Et Les anciennes Villes Berbères Du Sahara Dans Les Récits Es Explorateurs Du XIX Siècle, Bulletin De L'institut Français D'archéologie Orientale, N 59, Le Caire-Egypte, 1960.

VAN BERCHEM (Marguerite), Deux Compagnes de Fouilles a Sedrata en Algérien, Comptes rendus des séances de l'académie des inscriptions et des belles lettres, 96e année, N 2, 1952.

VAN BERCHEM (Marguerite), Sedrata. Un Chapitre Nouveau De L'histoire De L'art Musulmane. Campagnes De 1951 et 1952, In Ars Orientalis, Vol I, 1954.